s[b·d·Ł qM· w ·Ł 5 WUJ· QA
dJ* · WO·uD· J_ `u{ w

اسماعيل عبدالفتاح محمد عبدالفتاح

ملخّص: استعملت الأختام الأُسطوانية في جنوبي العراق ووسطه، منذ الربع الأول للألف الثالث ق. م، خلال الحقبة الزمنية، الممتدة ما بين نهاية عصر جمدة نصر وبداية عصر فجر السلالات السومرية. وترجع معرفة إنسان ما بين النهرين للاختام الأُسطوانية، الى ما قبل معرفته الكتابة. وقد استخدمت هذه الأختام في الأنشطة التجارية، كختم بضائعهم لتأمينها ضد السرقات، أو لتمييزها عن البضائع الأخرى، ما يشير إلى زيادة النشاط التجاري، وإلى نمو الشعور بالذات والملكية الخاصة. وربما كانت تلك الأختام تشير إلى رموز دلالية ارتبطت بالختم . ومن أهم الرسوم، التي امتازت بها الأختام، مناظر ذات طابع ديني، ومناظر الأعداء والأسرى، ورسوم للحيوانات والطيور، وأطلقوا على هذه الأختام اسم: "البروكيد"، لتشابه زخرفتها مع النسيج أو حياكة الحصر والسلال. وكان نظام الكتابة في اللغة الخاصة بأهل العراق القدامى يشبه الكتابة التصويرية (pictographic)، التي استخدمها المصريون القدماء، وذلك برسم الشيء المراد كتابته، أو جزء مميز منه، للتعبير عنه وسهولة فهم المقصود منه. ويرجع تاريخ الأختام الأُسطوانية في مصر الى الالف الثالث ق. م، وهو يقدم أمثلة تقليدية ناشئة عن تأثيرات حضارية متبادلة، في منطقة الشرق الأدني القديم.

Abstract. *Cylinder seals were discovered in central and southern Iraq in the first quarter of the third millennium B.C., during the time falling between the end of Jamdat Nasr period and the beginning of that of the Sumerian dynasties. The Mesopotamian man knew cylinder seals before having known writing. Merchants and business people used those seals in their commercial activities to insure their goods against theft and to distinguish their properties from those of others. This fact indicates increasing commercial traffic and growing sense of personal ownership and identity. Again, the characteristics of those seals might have reflected the traits of those who used them. The drawings and engravings on those seals were mainly of religious nature, and included scenes of offerings to the gods, enemies, prisoners of war, different animals, and birds. Those seals were so intricately knitted that they were named "Brocade" because they were similar to knitted straw mats and baskets. Those seals, however, represented an early form of writing in Mesopotamia; and ancient Iraqi writing was a form of pictography similar to the system of writing used by ancient Egyptians. In Egypt, the history of cylinder seals goes back to the third millenium B.C. and thus presents a classic example of mutual cultural influences in the region of the Near East.*

من المعروف أنه منذ الربع الأول للألف الثالث قبل الميلاد، اكتُشفت الأختام الأُسطوانية في جنوبي العراق ووسطه، التي ترجع إلى الفترة الزمنية ما بين نهاية عصر جمدة نصر، وبداية عصر فجر السلالات السومرية. وكان قد سبق ذلك انتقال سكان العراق القدامى، من حياة البداوة – التي تعد سمة من سمات العصور الحجرية – إلى حياة التحضر، المتمثلة في معرفة الاستيطان في تجمعات، ومعرفة الزراعة وسائر الفنون الحضارية الأخرى؛ وكذا اختلاط أو اندماج الشعوب العراقية القديمة، من ساميين وسومريين وغيرهم، بعضهم ببعض، الأمر الذي نتج عنه ظهور الارهاصات الأولى لحضارة راقية. وكان ذلك أثناء الألف السادس والخامس والرابع قبل الميلاد (فرج ١٩٨٦: ٣٣٠).

(ص ص ٤١ – ٦٦) ردمد ٨٩٤٧-١٣١٩

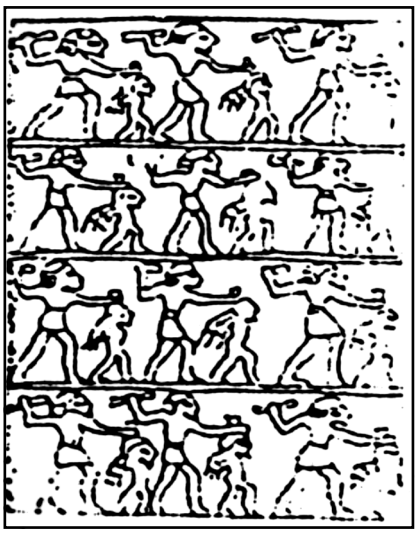

الشكل ١: يوضح منظرا للأسرى والأعداء، من مناظر أختام جمدة نصر (نقلاً عن: عطاالله ١٩٩٨: ص ٢١٢).

وقد استخدم العراقيون القدماء الأختام بكثرة، وربما كانت تشير إلى علامات شخصية مميزة لهم. فقد اعتاد الإنسان القديم بالعراق على استخدام الأختام للتوقيع على الوثائق، إذ لم يترك نظام الكتابة هنالك مجالاً كبيراً، للخطوط والكتابات الشخصية المتميزة. وكان الشكل الأُسطواني هو الأكثر شيوعا لتلك الأختام. وكان الختم، آنذاك، عبارة عن أُسطوانة مثقوبة على طول محورها، ويراعي أن يسمح الثقب بإدخال خيط أو حبل بداخله، حتى يمكن تعليق الختم على رقبة صاحبه (موسكاتي ١٩٥٧: ١١٢). كما ظل يحدث إلى فترة قريبة جدا في عصرنا، ليس فقط في العراق، بل في مصر وبلدان عربية أخرى.

أهم المناظر

إن المناظر التي كانت على هذه الأختام بشكل عام، كانت ذات طابع ديني، إلى جانب تسجيل اسم صاحب الاسطوانة "الختم" وإهداء للإله. وكانت هناك مناظر لملحمة "جلجاميش"، خاصة الصراع مع الوحوش، إلى جانب مناظر المآدب والشجرة المقدسة (موسكاتي ١٩٥٧: ١١٢؛ Gibson 1977: 65-68).

ومن أهم مناظر أختام جمدة نصر مناظر الصيد، التي من بينها منظر لبطل عراقي يظهر فيه وهو يتحكم في الأسود أو الفهود. ومن الجدير بالذكر، أن الأطوار الأولى لتلك الأختام الأُسطوانية من الوركاء/ أوروك وجمدة نصر، كانت تُقلد بمناظرها في مصر، كما كانت العناصر المصورة عليها، هي الأخرى من مجموعة العناصر الفنية المصرية القديمة (عطاالله ١٩٩٨: ١٨١-١٨٢).

ومن مناظر أختام جمدة نصر أيضاً، من مناظر الأعداء والأسرى، على بعض الاسطوانات العاجية ضمن ودائع أساسات معبد "هيراكينوبوليس"، التي يُشاهد عليها منظراً لاقتياد الأسرى المقيدة أذرعهم إلى الخلف، وكذلك ضربهم بالمقامع (الشكل ١) (عطاالله ١٩٩٨: ١٨٣-١٨٤؛ Helck 1971: 8).

وقد وجد العديد من الأختام الأُسطوانية، التي تحمل نقوشا هندسية محفورة، يتخللها في معظم الأحيان رسوم للماشية: كالغزلان والماعز، أو مناظر للطيور والأسماك؛ لذا، عُدت بداية لعصر جديد، أُطلق عليها اسم "البروكيد"، لتشابه زخرفتها بالنسيج، أو بشكل حياكة الحصر والسلال. وقد وجدت هذه الأختام الأُسطوانية في العديد من المواقع، مثل: "تولوب" حاليا-"خفاجي"- في الطبقات من الرابعة إلى السابعة من طبقات معبد "سن"، وفي معبد الإلهه الأم "ننتو"، وفي "تل أسمر- "أشنونا" في معبد آبو إله النبات"، وكذلك في أعماق معبد "شارة"، و في حفائر منطقة "أور"، خاصة في الطبقات من الرابعة للثامنة، و في منطقة الوركاء، فضلا عن مناطق "كيش" و"نفر" و"فارة". وتتميز تلك الأختام، التي تُعرف باسم "البروكيد"، بأنها نحيفة وطويلة الشكل، صممت على نحو يمكِّن من دحرجتها على الطين باستمرار، لتشكيل أو لنقش المناظر المطولة التي لا نهاية لها (فرج ١٩٨٦: ٣٤-٣٥؛ Grawford 1991: 9, 23-27).

ولقد أكتشف نوعان من هذه الأختام الأُسطوانية، التي ترجع إلى عصر فجر السلالات. النوع الأول، الذي سبق الحديث عنه، وهو ما يطلق عليه "البروكيد"، وينسب إلى نهاية عصر جمدة نصر، ذات الزخارف الهندسية. اما النوع الثاني، فينسب إلى عصر فجر السلالات الأول. وكان ذلك النوع من الأختام، يطبع أو يختم به على أغطية الجرار الفخارية. ويختلف النوع الثاني من تلك الأختام عن النوع الأول، في طريقة الحفر؛ فتبدو فيه خشنة. أما المناظر، فكانت غالباً ما

الشكل ٢: نموذج للأختام الأُسطوانية، التي تعرف باسم أختام "البروكيد" محفوظ بالمتحف العراقي، عُثر عليه في منطقة تل أسمر، (نقلاً عن: فرج ١٩٨٥: صورة رقم "١").

تمثل الملاحم الأسطورية السومرية، مثل: شجار الحيوانات، وهجوم الأسود على الماشية، التي يحميها راعيها البطل، وكذلك مناظر الولائم والحفلات الموسيقية، ونقشت كلها بطريقة الكشط، مكونة خطوطاً عريضة وعميقة غير دقيقة المعالم (فرج ١٩٨٦: ٣٥-٣٦).

ويوجد بالمتحف العراقي العديد من نماذج الأختام الأُسطوانية، التي تنتمي إلى النوع الأول "البروكيد" (فرج ١٩٨٦: ٣٦؛ Postgate 1992: 77). وترجع، كما ذكرنا، إلى عصر جمدة نصر.

الشكل ٣: نموذج للأختام الأُسطوانية "البروكيد"، محفوظ بالمتحف العراقي، عثر عليه في منطقة تل أجريب. (نقلاً عن: فرج ١٩٨٥: صورة رقم "٣").

وفيما يلي عرض لأهم تلك الأختام مع الوصف الأثري لها:

الختم رقم (١) (الشكل ٢): "مقاساته (٥,٥ × ٠,٩) سم": وجد هذا الختم في منطقة تل أسمر"أشنونا". وعليه منظر ثور، وفوقه ثور آخر مقلوب، وإلى جانبيهما ما يشبه ورقة الشجر، أو ربما طير صغير.

الختم رقم (٣) (الشكل ٣): مقاساته "٥,٧ × ١,٨ سم": وجد على سطح تل في موقع "تل أجرب"، وينسب إلى أختام البروكيد، التي ترجع إلى نهاية عصر جمدة نصر. رسم هذا الختم بطريقة الكشط، وتتخلله خطوط عميقة عريضة تصور "ايلاً" كبيراً، له قرنان يشبهان الأجنحة، أو شكل المشط، ويتبعه حيوان آخر صغير الحجم. أما في الصف العلوي، فمنظر لماعز مقلوب، يتبعه ماعز آخر صغير الحجم.

الختم رقم (٤) (الشكل ٤): مقاساته ٣,٢ × ١سم: يُعد من أجمل أختام صنف البروكيد، التي ترجع لنهاية جمدة نصر. عثر عليه في موقع"خفاجي"، وهي منطقة سكنية، تنسب إلى عصر فجر السلالات الأول، مع أن طراز حفره يعود به إلى

الشكل ٤: نموذج للأختام الأُسطواني "البروكيد"، محفوظ بالمتحف العراقي، عثر عليه في منطقة خفاجي، (نقلاً عن: فرج ١٩٨٥: صورة رقم "٤").

نهاية عصر جمدة نصر. يحمل الختم نقشاً لغزال، ويشف النقش عن رشاقة متناهية في الذوق. ويلاحظ أن أرجل الغزال تنتهي ببكرات صغيرة، كأنها حفرت بالمثقاب، مثلما نقشت غالبية نقوش جمدة نصر، ويُرى أمام الغزال أحد الطيور باسطاً جناحيه أحدهما على الآخر، ويشاهد وهو يطير بعكس اتجاه الغزال، ويُشاهد في أعلى مناظر لأباريق مقلوبة لها مصابها.

الختم رقم (٦) (الشكل ٥): مقاساته ٣,٩ × ١ سم: منشأه المعبد المربع من تل أسمر، نقش عليه صفّان من الماشية، في الصف العلوي ماعز له قرنان منحنيان على ظهره، في الصف الأسفل حيوان صغير الحجم، ويحيط بالمناظر من أعلى وأسفل ما يشبه الأسماك، أو ربما طيور.

الختم رقم (٧) (الشكل ٦): مقاساته ٤,٨ × ١ سم: عُثر عليه في تلول خطاب، في الجهة المقابلة لموقع الشحالي وخفاجي من

الشكل ٥: نموذج للأختام الأُسطوانية "البروكيد"، محفوظ بالمتحف العراقي، عثر عليه في المعبد المربع من تل أسمر، (نقلاً عن: فرج ١٩٨٥: صورة رقم "٦").

نهر ديالي؛ لذا، يعد ذلك الختم ضمن أختام منطقة ديالي، التي أمدتنا بالعديد من أختام "البروكيد"، ذات الزخارف الهندسية، ولو وصفنا نقوش ذلك الختم نقول: عليه صفان من الماشية تبدو كأنها تقفز في تتابع، ويلاحظ في الصف الأسفل نقش لماعزين جبليين متتابعين، ولو دُقق النظر يُشاهد للماعز الكبير قرنان، أما نظيره الصغير فله قرن واحد فقط (فرج ١٩٨٦: ٣٧، ١٤٦).

التقنية:

في البداية، لا بد أن نشير إلى أن مادة الأختام الأُسطوانية العديدة، التي وجدت على مر العصور العراقية القديمة، لا تعد دليلاً مؤكداً يُرشد إلى العصر، الذي تنتمي اليه، وإن كانت بعض تلك المواد هي الأكثر شيوعاً وشعبية، خلال عصور معينة؛ فمن أختام (أوروك) الأُسطوانية، نعرف أنها صُنعت من بعض المواد الشائعة آنذاك، كالرخام الأبيض، أو القرنفلي اللون. وقد استمرت الأختام تصنع من تلك المواد، حتى عصر جمدة نصر، الذي فضل استخدام حجر الكلس الملون، خاصة الأبيض اللون، الذي يميل إلى اللون الرمادي وكان شائعا آنذاك هنالك. وفي نهاية ذلك العصر، استخدمت الأختام الأُسطوانية، القصيرة الشكل والسميكة الحجم، التي كانت تصنع من حجر الكلس، الأخضر أو الرمادي. كما كانت هناك، أيضاً، الأختام الأُسطوانية الطويلة الشكل، ذات الأشكال الهندسية، أو التي تحوي أشكالا هندسية. وكانت مادة صناعتها من الفيانس، أو الخزف، أو الإستياتايت المزجّج (Frankfort 1939: 4).

الشكل ٦: نموذج للأختام الأُسطوانية، محفوظ بالمتحف العراقي، عثر عليه في منطقة تلول خطاب في الجبهة المقابلة لموقع الشمالي وخفاجي من نهر ديالي، (نقلاً عن: فرج ١٩٨٥: صورة رقم "٧").

أما مع بداية عصر الأسرات الأولى في العراق، فان تقنية ومادة الصُّنع لتلك الأختام الأُسطوانية ذات الاطار أو الشكل المزخرف، كانت من حجر الكلس الأخضر، أو الأزرق، أو الأسود، أو من حجر السربنتين الأسود. وفي النصف الأخير لعصر الأسرات الأولى، استُخدم الحجر الأبيض نصف الشفاف، أو الأخضر وحجر السربنتين الأخضر، والحجر الأرجواني، ولب المحار أو الصدف، الذي ظل مستخدما حتى بداية الأسرة الثالثة، وكان يجلب من الخليج العربي (الشكل ٧). و ظلت الأحجار البيضاء نصف الشفافة، تستخدم لعمل الأختام الأُسطوانية الصغيرة، التي كانت غالبا ما ينقش عليها مناظر دينية، أو مناظر رعي، بينما كان هناك إفريز مزين بالحيوانات المتصارعة. وكان هذا الطراز من المناظر شائعاً آنذاك على الأختام الأُسطوانية (Heuzey 1969: 383).

واستمر ذلك الطراز من المناظر، على الأختام الأُسطوانية الصغيرة من اللازورد، وفي بعض الأحيان على الأختام الأُسطوانية المصنوعة من الذهب والفضة، سواء كانت صلدة أو مصنوعة من رقائق معدنية طليت بالقار. أما في العصور الآكادية، فتنوعت مادة صنع تلك الأختام الأُسطوانية؛ فمنها ما صنع من حجر اليشب، أو من صخر الكريستال. وقد استخدمت هذه المواد عند ندرة وجود لب الأصداف الرّخوة، وكان ذلك قبيل نهاية ذلك العصر. أما أختام الأسرة الثالثة لأور، فقد صنعت من المواد نفسها، التي صنعت منها أختام العصر الأكدي. ومع ذلك، فإن اللازورد استخدم أحياناً كما كان من قبل، بشكل استثنائي لصناعة الأختام النفيسة والقيّمة. وفي سورية، استخدم لصناعة تلك الأختام الهيماتيت، وبعد ذلك استخدم الفخار المطلي أو الفيانس، خاصة في عصر الميتانيين. وقد استمر استخدام هذه المواد بشكل كبير فيما بعد (Frankfort 1939: 4).

أما الأدوات والآلات المستخدمة في تقنية صناعة الأختام الأُسطوانية، فقد ارتبطت بظهور المعادن في بلاد النهرين، التي كانت تستخدم في نحت تلك الأختام وقطعها. وكانت تلك الأختام تثقب بواسطة مثاقب من النحاس. وقد عُثر على العديد من تلك الأدوات، التي كانت تستخدم لثقب الأختام في منطقة (تل أسمر)، وفي بعض المنازل الخاصة، التي تؤرخ

الشكلان ٧- ٨: من: Frankfort M. A. H; op.cit ; pl.II.

الشكل ٧ : مناظر تمثل بداية عصر الأسرات الأولى في العراق، عليه مناظر دينية ومناظر رعي، ويزينه إفريز من الحيوانات المتصارعة.

الشكل ٨: يوضح الآلات المستخدمة في تقنية الأختام، ويؤرخ بعصر سرجون الأول، عُثر عليه في منطقة تل أسمر.

بعصر سرجون الأول في (آكاد). وكانت تلك الآلات عبارة عن كومة في قدر صغير، يحوي بعض الأختام الأُسطوانية غير مكتملة الصناعة، مع بعض حبيبات من الخرز، إضافة إلى قطع نحاسية وفضية (الشكل ٨). ويلاحظ أن عملية ثقب تلك الأختام الأُسطوانية، لم تكن فى اتجاه واحد؛ بل كانت تصنع فى كل نهايات الختم الاسطواني، لتشكل بذلك زوايا صغيرة الحجم داخل الختم. ويوجد أمثلة قليلة كانت معروفة فى العصر البابلي، فقد وجدت مجموعة من الأختام الأُسطوانية بها ثقوب دائرية وإسطوانية. وكان شكل الختم، آنذاك، أكثر عرضاً وعمقاً فى المنتصف، منه في النهاية الخاصة به. أما فى العصور الآشورية، فاستخدمت الأختام السابقة بتقنية الصناعة نفسها. لم تكن تلك التقنيات -بداهة- تشبه ما تقوم به عجلة الفخراني، التي كانت تدار بالقدم فى حركة دائرية سريعة. وهناك بعض الأختام الأُسطوانية من ميزوبوتانيا، ظهر عليها تأثيرات أرمينية، تمثلت فى شكل نقوش مزيّنة بمناظر، يغلب عليها الطابع الأرميني، وإن كنا لا نستطيع تحديد تاريخها

تماماً (Frankfort 1939: 4-5).

أما أختام أوروك وجمدة نصر، فكانت عملية الثقب فيها، الخاصة بالأختام الأُسطوانية، عبارة عن ثقوب محورية. وهذه الطريقة لم تكن سائدة آنذاك. كما استخدموا تلك الثقوب لتُعلّق الأختام منها.

أما في عهد سرجون الأول، فظهرت بعض الأختام المقعّرة أو المحدبة الشكل، خلافاً للأختام الأخرى، التي تنتسب إلى الفترة نفسها، التي تتميز بأحجامها المختلفة؛ ثم شاعت، بعد ذلك الأختام الأُسطوانية الصغيرة الحجم والارتفاع، واستمر استعمالها في الاستعمال حتى العصر الكاشي.

أختام اسطوانية عراقية من الحجر:

أقدم ما يمثل تلك الأختام الحجرية نوعان: الأول ختم

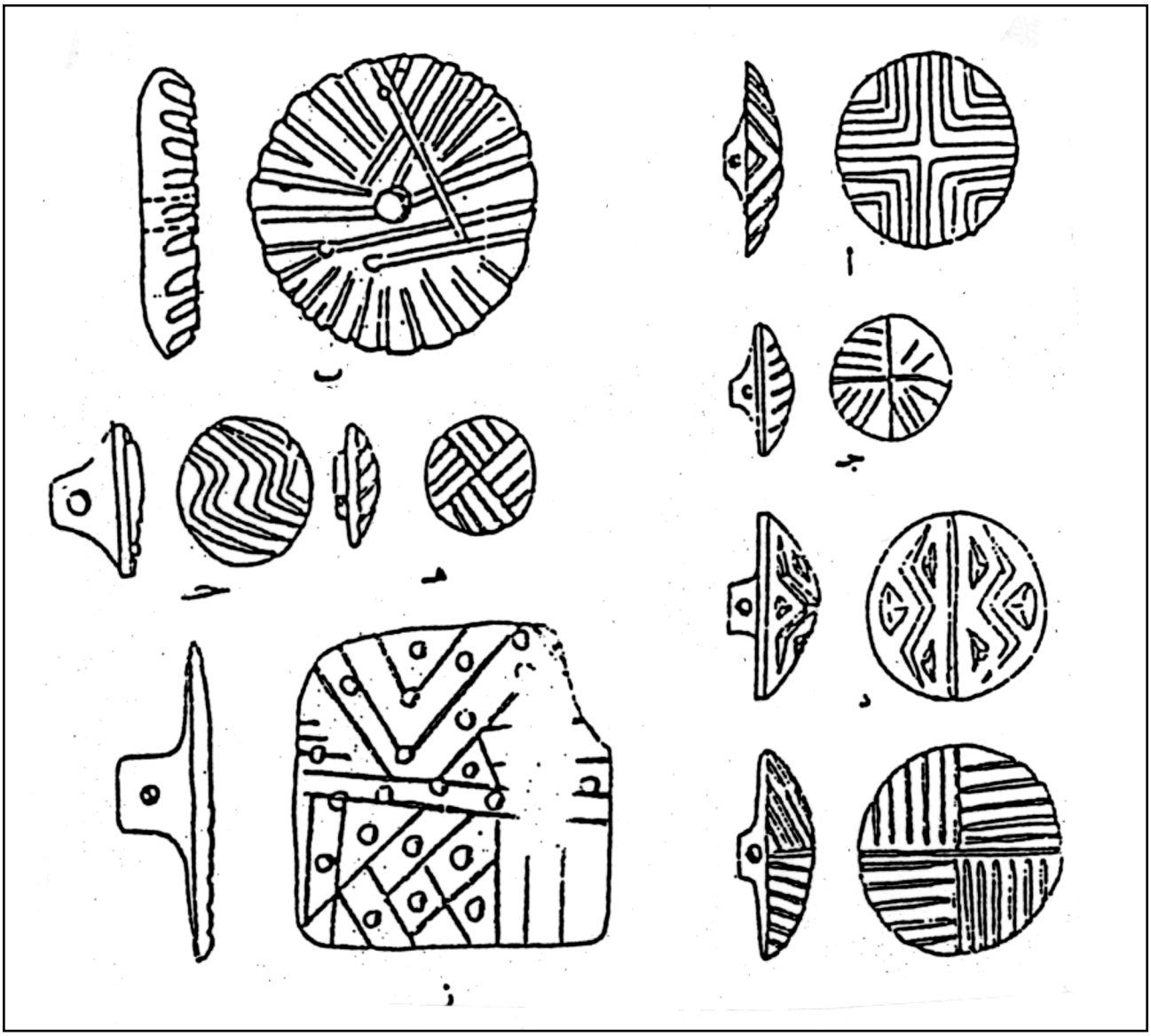

الشكل ٩: يمثل أقدم ختم أسطواني عراقي من الحجر الرمادي، "ج، د، هـ "تمثل ختماً عراقيا آخرا من الحجر، ولكنه أكثر تطوراً ومزيناً بأشكال هندسية؛ "و" يمثل نموذجاً آخر من الأختام الأُسطوانية العراقية؛ "ز" نموذج يعد الأكبر من أختام العراق الحجرية يميل لونه إلى الأخضر الضارب بالزرقة؛ "ح" يمثل نموذجاً من الأختام العراقية الحجرية، تشبه أشكال الأزرار، ومزين بخطوط مموجة (نقلاً عن: سليم١٩٩٥: الشكل "٩١").

مصنوع من الحجر الرمادي، وهو على شكل قرص مثقوب من المنتصف، نحتت عليه خطوط مزدوجة (الشكل ٩)، أما النوع الثاني: فيبدو أكثر تطوراً ومزيناً بأشكال هندسية (الشكل ٩ "ج، د، هـ"). وفي طبقات أثرية أخرى، وجد العديد من تلك الأختام (الشكل ٩ " و")، لعل من أبرزها الختم الذي يعد الأكبر فيها، وهو مصنوع من حجر يميل لونه إلى الأخضر الضارب للزرقة، ومزين بخطوط وفتحات دائرية صغيرة أنظر (الشكل ٩ "ز"). أما الختم، الذي في (الشكل ٩ "ح")، فهو مصنوع من حجر ضارب للخضرة وهو على شكل الزر وقد زين بخطوط مموجة (سليم ١٩٩٥: ٢٩٧-٢٩٨).

الأختام وبدايات الكتابة العراقية:

استخدمت تلك الأختام في الأنشطة التجارية، في ختم البضائع، ربما كنوع من التأمين ضد السرقات، أو لتميزها عن البضائع الأخرى، ما يشير إلى زيادة النشاط التجاري، ويشير، أيضاً، إلى نمو الشعور بالذات والملكية الخاصة (سليم ١٩٩٥: ٢٩٨).

وبناء على ما تقدم، يتضح أن معرفة انسان ما بين النهرين القديم للأختام الأُسطوانية، يرجع إلى ما قبل معرفته لاختراع الكتابة -وربما كانت تلك الكتابة شأنها شأن التصوير والنحت- نشأت فناً خزفياً، إذ بدأت ضرباً من ضروب النقش والرسم. وبذلك، تكون الطينة نفسها، التي تحولت في يد الخزّاف إلى آنية، وفي يد النّحات إلى تمثال، وفي يد البناء إلى قالب من الطابوق، قد هيأت للكاتب العراقي مادته، التي خط عليها كتابته.

وكانت تلك الأختام شائعة جداً بين الإنسان العراقي القديم، في تعاملاته المختلفه. ولم تكن تلك الرموز، التي على الأختام، صوراً، بل كانت في معظمها علامات تجارية، تدل على الملكية والكمية، أو غير ذلك من معلومات يقتضيها التبادل التجاري؛ اذن لم تكن تلك العلامات حروفاً كالمصرية القديمة، لأن العلامة الواحدة كانت كلمة واحدة، أو فكرة بأسرها. ومع ذلك، فمعظم تلك الرموز، أو العلامات، كانت شديدة الشبه بأحرف الهجاء الفينيقية. ويرى بتري (Petrie F.) أن مجموعة كبيرة من تلك الرموز، استخدمت شيئاً فشيئاً في العصور الأولى لأغراض شتى، كالتجارة؛ ثم ما لبثت أن تدولت من قُطْر إلى آخر، حتى -كما يقول بتري- كتب النصر لنحو ستة من تلك الرموز، فأصبحت ملكاً مشاعاً لطائفة من التجار، بينما أخذت سائر الأشكال، التي اقتصر استعمالها على قطر واحد دون بقية الأقطار، تموت في عزلتها شيئاً فشيئاً " (ديورانت: ١٨٢-١٨٣).

واقدم ما وصل الينا من تلك الأختام الأُسطوانية، وجد على السّدادات الصلصالية. وتمثل تلك الأختام الأُسطوانية مرحلة بدائية جداً للكتابة العراقية القديمة؛ اذ كانت تحوي أرقاماً منحوتة، ربما لتساعد الإنسان العراقي القديم على التذكر؛ ثم تلي تلك المرحلة إضافة أحرف الكتابة إلى الأرقام (Frankfort 1939: 1; Falkenstien 1936: 37).

وعندما أصبحت الكتابة التصويرية هي المعتادة، آنذاك، تحولت العلامات أحادية (الصوت) وهي الأرقام والأحرف- التي عرفت سابقاً- إلى مجموعات كتابية تصويرية، بإضافة الاسم إليها. وقد وجدت طريقة الكتابة الجديدة هذه، في العقود والخطابات والوثائق وغيرها، كطريقة شرعية، وفقاً لتلك النقوش، التي أصبحت سمة خاصة بالختم الشخصي الرسمي. وكان يُستخدام ذلك الختم بتمريره، أو دحرجته، على سطح الصلصال اللّين.

ولم يكن استخدام تلك الأختام الأُسطوانية قاصراً على العراق القديم وحده، بل كانت في مصر خلال الألف الثالث قبل الميلاد، وكذلك في فترات أخرى مختلفة في كلٍ من سورية وفلسطين والأناضول. وكانت أختام تلك المناطق يبدو عليها واضحاً التأثيرات البابلية القوية. وقد انتشرت تلك الأختام بكثرة في بلاد ما بين النهرين، خلال الألف الأول ق٠م، على الرغم من أنه في حالات استثنائية وجدت تلك الأختام الأُسطوانية في كل الفترات. ولكن يلاحظ في الفترة الآشورية ازدياد شهرة تلك الأختام. وبحلول القرن السابع الميلادي خاصة، أصبحت تلك الأختام الأُسطوانية تستخدم محل الأختام، التي كانت موجودة فى الفترة الفارسية. أما أقدم اللوحات، التي وجدت تحمل طبعات تلك الأختام، فإنها تؤرخ بالألف الرابع ق٠م، في حين أن تاريخ الكتابة على الأختام

الأُسطوانية يغطى فترة الثلاثة آلاف عام (Frankfort 1939: 1).

ويُستنتج من الوجود البدائي لتلك اللوحات، التي تحمل طبعات الأختام الأُسطوانية، أن الختم الرسمي، الذي اشرنا اليه من قبل، أو ما يسمي بـ "ختم الوثائق"، الذي كان يعد وسيلة شرعية للاستخدام الشخصي في مختلف التعاملات، لم يكن هو الوحيد الممثل للوظيفة الأساسية لتلك الأختام، ذات الطبعات الأُسطوانية؛ بمعنى أن كلاً من الأختام ذات الأرقام والأحرف، وتلك اللوحات التي تحمل الطبعات الأُسطوانية، تمثلان معاً الوظيفة الأساسية للأختام الأُسطوانية، مع الأخذ بعين الاعتبار أن احتمال كتابة الوثائق بواسطة طباعة الأختام، يعد استخداماً ثانوياً للأختام الأُسطوانية، يفهم من مضمون محتوى الختم، عن الختم الذي يعبّر عن ملكية خاصة. وقد عثر على العديد من تلك الأختام الأُسطوانية، التي كانت تستخدم، غالباً، في المعاملات التجارية، معبأة أو مكدسة داخل الجرار. وكانت تلك الأختام ملفوفة في كل الاتجاهات.

وقد ظهرت بدايات الكتابة في العراق القديم، في ما يُطلق عليه: عصر التاريخ المدون، في منتصف الألف الرابع ق٠م، بينما هناك من يرجّح ظهور بدايات الكتابة العراقية، منذ المراحل الأخيرة لحضارة الوركاء، وحضارة جمدة نصر، وذلك في أواخر فجر التاريخ العراقي القديم. وقد بدأت الكتابة بالطريقة التصويرية، ثم تطورت على أيدي السومريين باضافتهم المقاطع الصوتية لها (باقر ١٩٦١: ٢٣٤-٢٣٦؛ Kramer 1944: 43). فقد كانت الكتابة عبارة عن صور، ثم اتخذت طابعاً مقطعياً رمزياً عبارة عن خطوط مستقيمة، لها دلالة أو قيمة صوتية، بدلا من الصور السابقة. بدأت الكتابات بالطريقة التصويرية، التي كانت تعبّر عن الماديات، أكثر من تعبيرها عن الفكرة المعنوية، التي غالبا ما عبرت عنها بشيء مادي يرمز اليها، كالذراع الذي يرمز إلى القوة، والقدم التي تدل على حركة المشي، وغيرها. ثم عُرفت بعد ذ لك بالكتابة المسمارية (العتيقة)، أي القديمة، وسرعان ما استخدمت تلك الكتابة لتدوين أسماء الملوك والمعتقدات الدينية والأساطير، وكل ما يتعلق بحياتهم اليومية. وكانت ألواح الحجر أو الطين والمسلات الرخامية، تستخدم للكتابة على أسطحها (فرج ١٩٨٥: ٣٣؛ Cottrell 1965: 47).

كانت الكتابة بذلك الخط المسماري الأركائي القديم، الذي يرتبط ببداية عصر فجر السلالات العراقية القديمة. وقد كتب ذلك الخط على ألواح حجرية أو طينية، وعلى مسلات الرخام. واذا رجعنا إلى الوراء قليلاً، أي إلى ما بعد منتصف الألف الرابع ق٠م، فاننا نجد كتابات تصويرية على ألواح حجرية وطينية، وجدت فى الطبقة الرابعة من حضارة الوركاء، وأسفل طبقات حضارة أور، وفى منطقة فارة، وتل الصلابيخ، والعقير؛ وكلها ترجع إلى نهاية عصر أوروك، وعصر جمدة نصر، أي منذ بداية الألف الثالث ق٠م. وقد تطورت تلك الكتابة فيما بعد، وعرفت باسم الكتابة المقطعية الرمزية. ومع أنها البداية المهمة لتطور الكتابة العتيقة المسمارية، بعد أن أُدخلت عليها الصيغ الفعلية والقيمة الصوتية، إلا أنها كانت تدون باللغة السومرية، وإن كانت تلك الكتابة تحوى في بعض الكلمات والألفاظ السّامية. وكانت تستخدم فى تدوين الأخبار وقوائم الأشخاص، والمواد المختلفة (فرج ١٩٨٥: ٣٥).

وبدأ فك طلاسم تلك الكتابة العراقية القديمة، عندما اكتشف رولنسون (H. C. Rawlinson) –قنصل بريطانيا في بغداد آنذاك، وكان شغوفاً بالبحث عن النصوص القديمة– فوق الهضبة الايرانية بأرض الرافدين، بالقرب من منطقة بهستون (Bwhistun) بفارس، نقشاً مسمارياً قديماً مكتوباً بثلاثة خطوط، أحدها الخط الفارسي "مكتوباً بالخط البابلي القديم". وقد أمكن استعمال ذلك الخط الفارسي – الذي كان سلفاً قد استطاع العلماء فك طلاسمه – كمفتاح لتفسير الخطوط الأخرى في ذلك النقش القديم (موسكاتي ١٩٥٧: ٦٢؛ Kramer 1963: 37-39).

وفي عام ١٨٥٧، عهدت الجمعية الآسيوية الملكية بلندن، إلى أربعة من علماء الآشوريات ترجمة نصٍ واحد، كلٍ على حدة؛ فكانت ترجماتهم الأربعة متطابقة تقريباً، ما ساعد على فك طلاسم نقوش وكتابات بلاد الرافدين القدامى. واتضح من خلال تلك الدراسات والترجمات، أن الإنسان العراقي القديم استخدم نظاماً واحداً للكتابة، بلغتين مختلفتين تماماً. كانت الأولى لغة السومريين، وهم سكان هذه البلاد في الألف الثالث ق٠م، والثانية لغة البابليين والآشوريين، وهما من الشعوب

السامية، التي جاءت في شكل موجات متعاقبة وأقامت اقامة مستقرة في بلاد الرافدين القديمة. أما عن تفسير اللغتين البابلية والآشورية، فقد تم من خلال معرفة اللغات السامية الأخرى ومقارنتها بها (موسكاتي ١٩٥٧: ٦٣-٦٤؛ Tostado 2001: 1-2).

وكان نظام الكتابة في اللغة الخاصة بأهل العراق القدامى، نظاماً سومرياً وهو عبارة عن علامات مستنبطة من صور مختلفة، وذلك ما جعله نظاماً بالغ التعقيد والصعوبة، وهو ما يشبه الكتابة التصويرية (pictographic)، التي استخدمها من قبل المصريون القدماء، وذلك برسم الشيء المراد كتابته، أو جزء مميز منه، للتعبير عنه وسهولة فهم المقصود منه ٠

وكانت الكتابات ترتب على هيئة خطوط رأسية، تبدأ عند الطرف الأيمن العلوي للوح الكتابة، المصنوع من الصلصال الأملس؛ وللتيسير كانوا يديرون لوح الصلصال إلى اليسار، بما يعادل ٩٠ درجة. فكانت الكتابة تبدأ في الركن الأيسر العلوي، ثم تُرتب في خطوط أفقية، تُقرأ من اليسار إلى اليمين، كما فعل الآكاديون. أما الساميون، فكانوا يفضلون الكتابة من اليمين إلى اليسار.

وما يؤخذ على الكتابة المسمارية، أنها لم تكن قادرة على التعبير عن الأفكار المجردة، والصيغ المختلفة للفعل. وفي خطوة نحو تلافي ذلك، بدأت تلك الكتابة تستعمل العلامات، ليس للتعبير عن معاني الصور، التي اشتقت منها تلك العلامات، بل للتعبير عن القيمة الصوتية المتعلقة، أو المتصلة بها؛ وكمثال لذلك استخدمت الكتابة المسمارية كلمة: (جا - ga)، للدلالة على اللبن، فأصبحت هذه الكلمة تستعمل لكتابة المقطع (جا - ga) بغض النظر عن معناه. وأطلق على ذلك التطور كتابة صوتية وهي خطوة نحو تبسيط الكتابة الا أن واقع تلك الكتابة كان شديد التعقيد والصعوبة، إذ أصبحت القيم الرمزية لعلامات تلك الكتابة تترجم أو تفسر تارة على أساس رمزي، وأخرى على أساس صوتي، وذلك وفقا لسياق الجملة. ومما يؤخذ، أيضاً، على تلك الكتابة العراقية القديمة، عدم تطورها إلى مرحلة الحروف الهجائية، فضلا على عدم استفادة أصحابها من مواد الكتابة، التي عرفها المصريون، لا سيما صفحات البردي (Kromer 1944: 431).

وهكذا، نرى أن نظام الكتابة، الذي عرفه الإنسان العراقي القديم، يعدُّ من أصعب النظم الكتابية، التي استعملت في العصور القديمة؛ ولكن، في الوقت نفسه، يمثل تقدماً لا بأس به في فن الكتابة، خاصة بعد أن تمكنت شعوب سامية أخرى في العصور المتأخرة، أن تضيف إلى نظم تلك الكتابة الملاءَمة العملية والقيمة الذاتية، بإضافة الأبجدية إلى تلك النظم (موسكاتي ١٩٥٧: ٦٤-٦٥).

أختام مصر الأسطوانية

يقدم تاريخ الأختام الأُسطوانية في مصر، أمثلة تقليدية ناشئة عن تأثيرات حضارية متبادلة، في منطقة الشرق الأدنى القديم. فقد استخدمت تلك الأختام بشكل عملي واضح، في كل أنحاء مصر خلال الألف الثالث قبل الميلاد. وقد اتسمت أشكال تلك الأختام بهيئة مصرية خالصة. ويعد استخدام الأختام الأُسطوانية الملفوفة في "نقادة". وكذلك رسم مناظر الحيوانات على تلك الأختام، خاصة ما عثر عليه من نماذج لذلك في مقبرة (واجي) بسوهاج، مخالفاً لما كان قبله، دليل تقدمٍ عما وجد في مقابر "هيراكينوبوليس"، "وأمبوس" "وديسبوليس بارفا" (Helck 1990: 87; Kaiser 1990: 296).

ومن دلائل التقدم نفسه، رسم النجوم فوق القرون والأذنين والجبهة، مشبهة في ذلك الحيوانات الإلهية أو المقدسة ذات القوى الكونية، قبل بداية الأسرة الأولى بحوالي ثلاثمائة عام على الأقل (Petrie 1912: 7; Kaiser 1987: 296).

وقد عُثر بمقبرة صغيرة بأبيدوس، على بعض الأشياء الصغيرة، مثل: قوارير غريبة المصدر، وختم عليه منظر حيواني من عصر "عحا"، وختم آخر من المقبرة رقم ١٠٣٥ في "أبو صير الملق". وهذا النوع من الأختام عرف قبل تلك الأختام التي عرفت حتى الآن بحوالي مائتي عام (Kaiser 1987: 296; Scharff 1931: 379). (الشكل ١٠) فقد عُرف منذ عصر نقادة الثالثة، ويعد نموذجا لتلك الأختام، ويرجح أن له صلة بغرب آسيا، إذ كان معترفاً بوجوده هناك، وخلافاً لمجموعة الأختام الأخرى، التي تعود إلى أبعد من ذلك الزمن، على

الأقل، وربما لبداية عصر نقادة الثانية. ويمثل ذلك الشكل ختماً دائرياً من عصر الملك "عحا" .

وقد وصفت هذه الأختام بأن بها طابعاً آسيوياً، ومع ذلك أظهر المصريون القدماء طابعاً جديداً لها (Kaiser 1987: 298).

ويخلص الباحث مما تقدم إلى أنه، وإن كانت بعض تلك الأختام قد استوردت ونقلت من الجانب الآسيوي، المتاخم لمصر القديمة، أو ربما قلدت، فإن المصري القديم استطاع أن يطوع هذه التقنية لصالحه، بل أضاف اليها وابتكر وجدد فيها ٠

ومن الأختام، التي تتشابه مع هذه التصنيفات تلك الأختام المحفوظة تحت الأرقام (١، ٢، ٦، ١٠، ١٥)؛ بينما الأختام المحفوظة تحت الأرقام (٣، ٥، ١٢) يظهر النظر إلى المناظر التي عليها، أنها تتشابه فقط مع مثيلاتها الآسيوية، مع مراعاة عدم الخلط بينهما، إذ وجد نوع الختم المقارن نفسه مع شبيهه الآسيوي في عصري نقادة الثانية والثالثة (Kaiser 1987: pl. 68; Kantor 1952: 269; berkeley 1965: 197; Brunton 1948: 5).

ويوجد ختم أكثر تطوراً من سابقيه، هو الختم رقم (١٢) النقادي الأصل، كما يوجد ختمان (رقم ١٣، ١٤) هما أيضا كالختم رقم (١٢). وتعد هذه الأنواع من الأختام

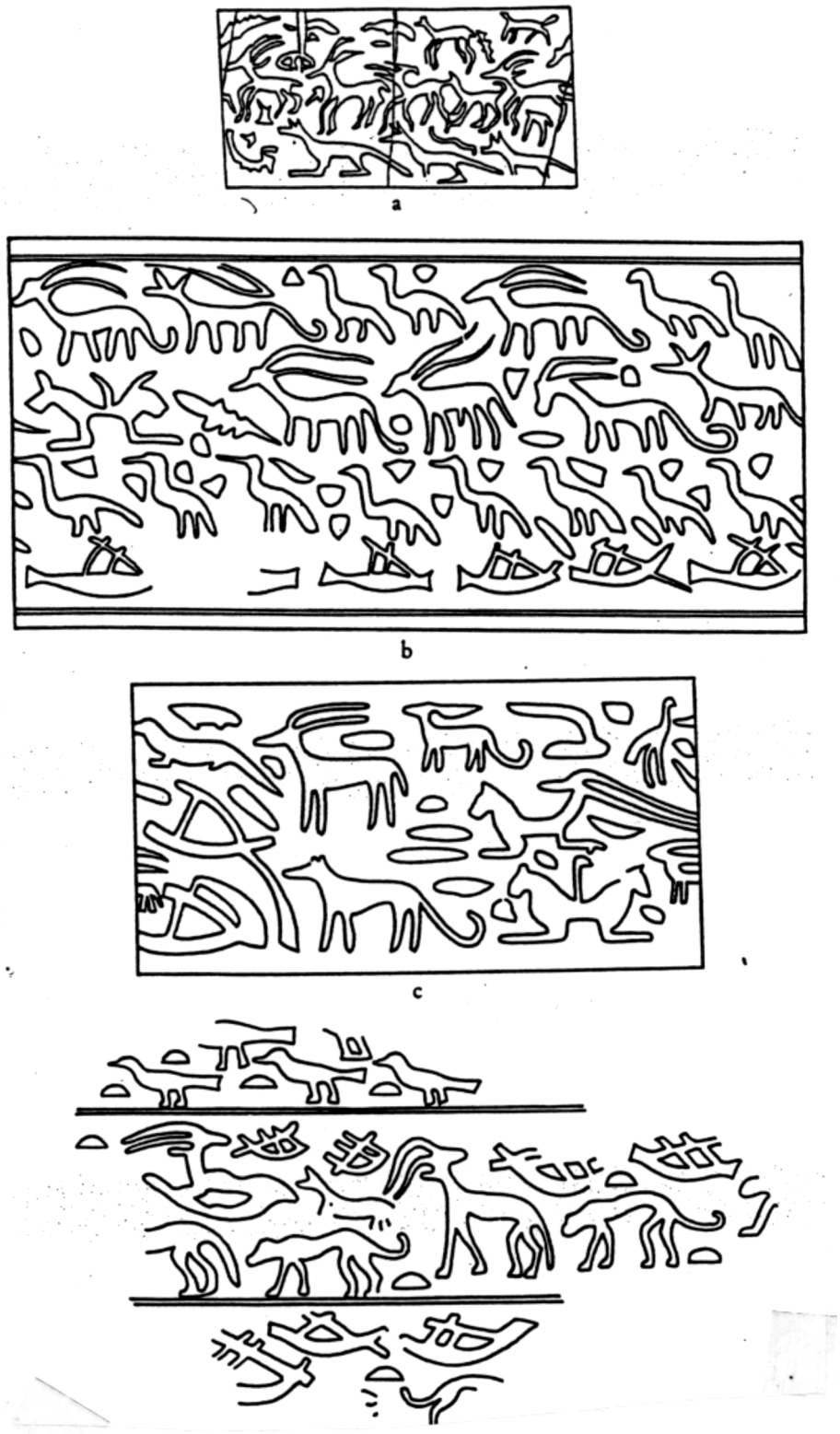

الشكل ١٠: ختم من أختام مصر الأُسطوانية، عثر عليه بالمقبرة ١,٣٥ في أبو صير الملق، ويعد من أقدم الأختام الأُسطوانية التي عرفت في مصر، (من : Kaiser , w; op.cit; abb 2).

ذات أهمية وقيمة، لما تحويه من نقوش ومناظر، فضلا عن استخداماتها العملية. وهناك سلسلة من الأختام الدائرية الشكل، التي عثر عليها في "أبيدوس" تحت أرقام (u.k - u.j)، يعود أقدمها إلى بداية عهد نعرمر (نارمر)، الذي يرجع إلى عهد قريب جداً، قبل استخدام الأختام على الاطلاق (Kaiser 1987: 298; Kaplony: 70).

أهم المناظر على أختام تلك الفترة:

توجد مناظر لأسماك ونسيج، أو ما يشبه الشبكة، ومنظر لبناية صغيرة، ربما منزل. كما توجد على بعض الأختام كتابات قديمة، ترجع إلى عهد "عحا"، ومناظر أخرى ربما لمخازن قصر أو مبنى له. كذلك توجد على بعضها مناظر للنحلة، خاصة على الختم رقم (١٢)، ما يدل على أن الختم له علاقة بمصر السفلى (kaplony: 295; Kaiser 1987: 298).

أختام الأسرة الأولى:

إذا دققنا النظر في أختام الأسرة الأولى، نجد أن الأختام الأُسطوانية لتلك الفترة تشبه أختام بلاد النهرين الأُسطوانية، مع ملاحظة أنه على الرغم من ذلك التشابه، فإن التأثير الناتج عن اتصال مصر القديمة ببلاد النهرين، لم يؤد إلى النسخ الحرفي للأصل الميزوبوتامي لتلك الأختام، لدرجة أنه من النادر أن يوجد ختم أسطواني مصري يمكن اعتباره نسخة من أختام بلاد النهرين الأُسطوانية. والحقيقة أنه في الوقت الذي ظهرت فيه الأختام المصرية ذات الطابع المصري الصميم، كانت الأختام الميزوبوتامية قد وصلت إلى وادي النيل، (Frankfort 1939: 292). وربما ظهرت، فيما بعد، بعض الصيغ الفنية والتقنية لتلك الأختام، التي استقتها مصر خلال تواصلها مع آسيا. وكان ذلك خلال عصر الأسرات السومرية، خاصة عصر جمدة نصر، الذي كان يعد عصر الانتشار لحضارة بلاد النهرين في كل الاتجاهات. ولذلك، فإن الأختام الأُسطوانية الخاصة ببلاد النهرين، التي وجدت مثيلاتها بمصر القديمة، تتناسب تماما مع صورة ذلك العصر وسماته الفنية (Frankfort 1939: 292-93).

ويستنتج مما سبق، أن الأختام المصرية الأُسطوانية لم تصطبغ بصبغة الأختام الميزوبوتامية في باديء الأمر، بل اتخذت لنفسها طرازاً خاصاً بها، فضلاً عن أن النظر إلى الآثار المبكرة لبلاد النهرين، خاصة أختامها الأُسطوانية، يظهر أنها في تصنيفاتها لم توضح تأثيرات آسيوية على حضارة وادي النيل، وربما كانت المراحل الحضارية لكلا البلدين، مصر والعراق، مشتركة.

وقد عثر (فلندرز بتري) في حفائره بنقادة، على مقبرة ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات، بها جرتان وختم أسطواني واحد، من تلك الفترة، التي تُؤرخ بالفترة المتأخرة من حضارة جرزة. وكان الختم الأُسطواني، نوع من الأختام العادية لحضارة بلاد النهرين في عصر جمدة نصر، إضافة إلى أن مادة صنع الختم من الحجر الجيري الأشهب، الذي كان نادر الوجود في مصر، وكذا في بلاد ما بين النهرين، ما عدا فترة جمدة نصر، التي شاع استخدام ذلك النوع من الأحجار الجيرية فيها ٠

وينطبق الشيء ذاته على ختم أسطواني آخر من الأقصر، يتميز تصميمه بأنه مغطي بطلاء أزرق. ويعتقد أن هذا الختم غير مصري الصنع، نظراً لما هو معروف من أن الأختام الأسطوانية لم تعرف في مصر قبل الأسرة الأولى، وحينذاك كانت تلك الأختام الأُسطوانية على نوعين، أحدهما: قصير ومعوج، والآخر منحني. بينما الشكل المذكور لم يكن مألوفا بين أختام عصر جمدة نصرالأُسطوانية، في بلاد ما بين النهرين، ولا توجد أي طبعات له في مصر، ما يرجح احتمال أن تلك الأختام كانت تستخدم لأغراض أخرى، غير الاستخدامات العادية لتلك الأختام الأُسطوانية (Frankfort 1939: 293).

ونظراً لأن تلك الأختام وجُدت في بعض المقابر- خاصة التي على شكل مصطبة- فمن المحتمل أن تكون استخدمت كتمائم جنائزية، خاصة أنها، في معظم الأحيان، تُظهِر شخصاً على مائدة مليئة بالأرغفة. وعندما بدأت النقوش في الاستخدام، مع بدايات عصر الدولة القديمة، ظهر شكل آخر يشبه الشكل السابق، ويبين بوضوح شخصاً جالساً على سرير، باسطاً يديه على منضدة مليئة بأصناف الطعام. كما ظهرت نقوش تمثل دعوات للمتوفى، حفظتها نصوص الأهرام في صيغ متعددة، فيها يعامل المتوفى كشخص نائم، تدعوه تلك النقوش

إلى تلك المنضددة العامرة بأصناف الأطعمة، أو ما يُطلق عليه مائدة القرابين (Frankfort 1939: 293)، إذ تقول النقوش: "هلم (انهض) أيها الملك "ببي" انهض، اجلس على آلاف الأرغفة والبيرة ... وما إلى ذلك" (Petrie 1917).

وبالنظر إلى التشكيلات العادية لتلك الأختام، المعوجة أو المنحنية، لحضارة ما بين النهرين، التي كانت في الغالب من نوع الأختام الأُسطوانية نفسها، المصرية المنشأ أو الصنع، نلاحظ – مرة أخرى– ديناميكية تقنية الاقتباس المصري، التي لم تتمثل في التقليد فقط، بل في استخدامات فنية محددة، للتعبير عن أفكار مصرية خالصة نابعة منهم كمصريين. وينطبق ذلك الأمر على الأختام الأُسطوانية المصرية المبكرة، وتحديداً تلك التي كانت تستعمل كأختام عرفت من خلال الطابعات الخاصة بها. ومن المهم معرفة أن استخدام تلك الأختام في مصر، كان شبيهاً باستخدام مثيلاتها في حضارة ما بين النهرين خلال عصر جمدة نصر، وعصور بداية الأسرات المبكرة. وكانت تستخدم لختم الطرود والجرار، التي كانت تحتوي على مواد ومنتجات تجارية (Frankfort 1939: 294).

ونادراً ما تعكس مناظر تلك الأختام المصرية مناظر حيوانية، كالتي كانت شائعة في ما بين النهرين (Petrie 1912: 101-104; Ayrton and Loat 1911: pl. xxvii, 1)، إذ دمجت الحضارة المصرية تلك التأثيرات بقوة، بطريقة تتلائم مع شخصيتها وقوميتها، لدرجة أن معظم تلك الأختام، خاصة في بداية الأسرات المصرية، لا توضح أي تأثير أجنبي. فلقد تعددت وظائفها إذ صممت لا لاستخدامها كأدوات زينة فقط، بل كأدوات للاستعمال اليومي في الحياة العادية. وقد صممت تلك الأختام من مواد لم تستخدم من قبل في بلاد النهرين، لمثل تلك الأغراض أو الاستخدامات السابقة. فهي صنعت من الأخشاب الصلدة والعاج (Frankfort 1939: 294).

وبناء على ما تقدم، يرى الباحث، أن فكرة استخدام الأختام الأُسطوانية في مصر القديمة، وإن كانت فكرة مستعارة من الخارج، الا أن التعبير عنها كان مصرياً خالصاً، لأن تشكيلات الأختام الأُسطوانية المبكرة في مصر القديمة، كانت تمثل البدايات الأولى للكتابة الهيروغليفية. فقد كانت تحوي نقوشاً صغيرة جداً، تحوي في الغالب اسم أحد الملوك وألقاب موظفيه (Frankfort 1939: 294).

ومن ناحية أخرى، تختلف أختام هذه الأسرة عن غيرها، بشكل عام، في الكيفية أو الجودة، عن مثيلاتها، التي كانت في الدولة القديمة. وقد شهدت أختام أواخر عصر الأسرة الأولى (الشكل ١١) تقدماً ملموساً، فيما يتعلق بالتقنية الواضحة، بالمقارنة مع مثيلاتها المبكرة أو البدائية (الشكل ١٢) (Frankfort 1939: 295).

ونجد في هذه الأسرة، أن الأختام ذات التصميم الزخرفي اختفت، وأنها نقشت أو حفرت بالكتابة فقط؛ فمثلاً الأختام، التي كانت تستخدم لأغراض رسمية، فإنها تحوي اسم الملك ولقب الموظف وليس اسمه الشخصي، أو كانت تحوي اسم الوظيفة فقط. ومن ثم اختلف الشكل الخاص بهذه الأختام، مقارنة بأختام ميزوبتاميا، وكذا بأختام مصر المبكرة (Frankfort 1939: 29).

وكمثال مهم على أختام تلك الفترة، لدينا ذلك الختم، الذي أسفرت عنه إحدى بعثات الحفائر الحديثة بمنطقة أم الجعاب:

أولا: قصة اكتشافه: هذا الختم من اكتشاف المعهد الألماني للآثار بالقاهرة، برئاسة "درايرG. DREYER)، في إطار المشروع الرابع لحفائر المعهد بأم الجعاب. عُثر عليه بالقرب من مدخل حجرة الدفن بمقبرة "دن" (Dewen). وهو ختم أسطواني (الشكل ١٣). ويرى "درايرG.DREYER) أنه منذ عصر "نارمر" حتى عصر "دن" (DEWEN) لم تكن هناك قائمة ملكية، بل فقط شخصيات إدارية، وأن هذا الختم ربما يرجع إلى أحد الملوك أو القادة، وذلك من خلال الطقوس الجنائزية، التي أجريت له. وربما يوضح وجود الختم بالقرب من مدخل حجرة دفن "دن" علاقة الختم بصاحبه (Kaiser 1987: 115).

إن هذا الختم، الذي وجد في أم الجعاب، ربما يؤكد أن الملك العقرب قد دفن هنالك. أما عن تحديد عصره، فإنه يرجع إلى ما بين عصري الملك "نارمر" و "عحا" (Kaiser 1987: 118).

التقنية: لا تبدو على الختم أي تغييرات يدوية، قد تكون طرأت

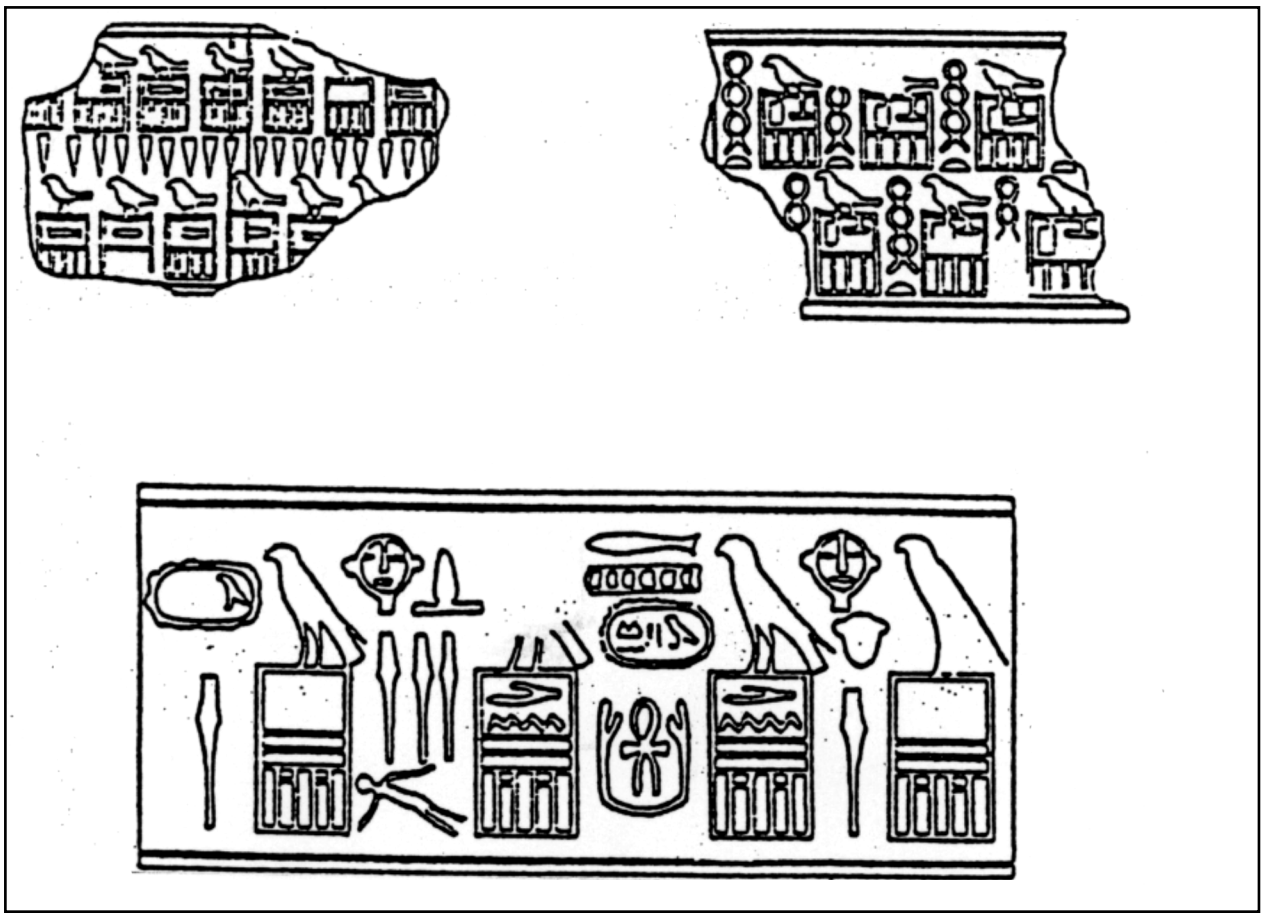

الشكل ١١: من: Frankfort 1939; op.cit ; text.fig. 96.

الشكل ١٢:من: Frankfort 1939; op.cit ; text.fig. 94-95، وكلاهما يمثل أختام الأسرة الأولى المصرية ذات التقنية المتقدمة مع المقارنة بمثيله في الفترات المبكرة .

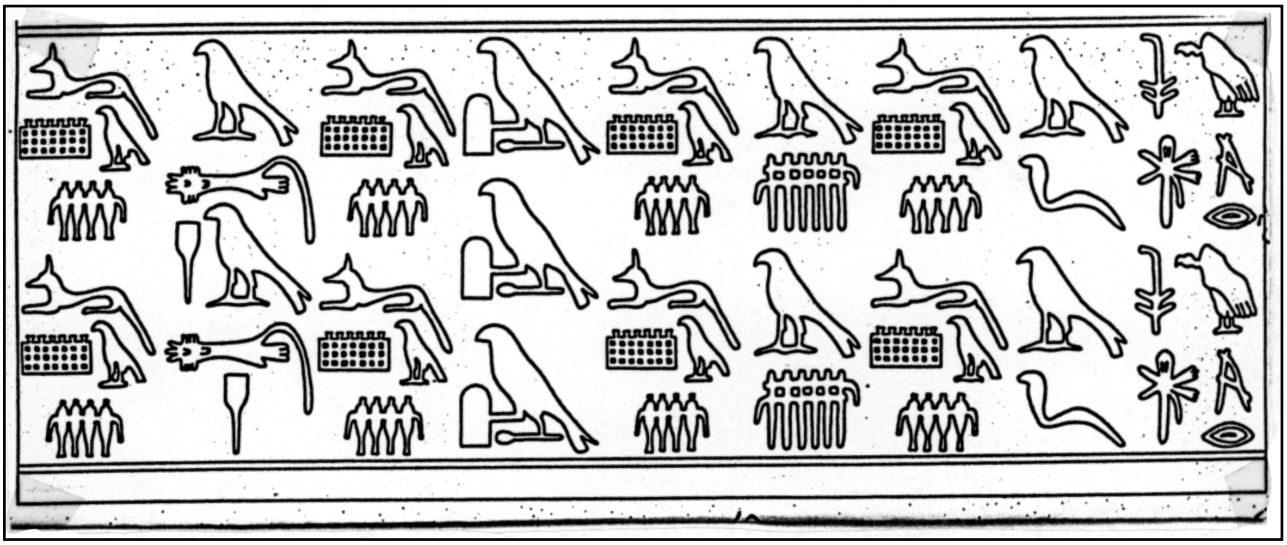

الشكل ١٣: ختم أسطواني من حفائر المعهد الألماني للآثار بالقاهرة بأم الجعاب، عثر عليه بالقرب من مدخل حجرة الدفن بمقبرة "دن" ، (Kaiser , w. 1987:)

عليه، فسحب الختم على الطين الرخو يبدو واضحاً. كما أن الجزء المطبوع من الختم لا يمثل كل أجزاء الختم، لأن الطينة ربما كانت غير مكتملة في سطحها العلوي، أو ربما رمم جزء منها. وكذلك، يلاحظ وجود جزء معدني يغطي محيط الختم بقطر ٥ سم، أو ربما كان هذا الجزء يلتف حول اسطوانة خشبية أو حجرية، وهو أمر لم يكن مألوفاً مقارنة بالأختام الأُسطوانية السابقة (Kaiser 1987: 119; Peisner: 1, 31, 44).

ويلاحظ أن تقنية صناعة ذلك الختم، كانت خاصة فقط بمنطقة أم الجعاب، خاصة في عهد الملك (دن). أما بعد موته، فيبدو أن الحاجة أو الوقت لم يكونا كافيين لصناعة ختم جديد. وكل ما فعله من أتى بعده، آنذاك، هو إكمال ما هو ضروري لذلك الختم، وبالتقنية نفسها(Kaiser 1987: 119).

وكمثال لأختام الأسرة الأولى، ذلك الختم الأُسطواني، الذي يُعرف باسم "ختم طرخان"، وقد عثر عليه في مقابر طرخان، وجاء ذكره في معبدي "أوسركاف" و "نيوسررع" الجنائزية. وهو من عصر الملك "نعرمر"، أحد ملوك الأسرة الأولى (الشكل ١٤) (عبدالفتاح ١٩٩٦: ١٦٤، شكل ١٤؛ Kaplony 1981: 122, pl. 50; Dolzani 1961: 172-4, pl. 3).

وهناك ختم آخر مهم للأسرة الأولى أيضاً، عليه نقش لتمساحين كاملين، وآخرين غير مكتملين، يتخللهما بعض الرموز الهيروغليفية (bti Sbk)، التي ربما تعني نبات الغاب الخاص بالمعبود "سوبك" [1] (عبدالفتاح ١٩٩٦: ٤٩؛ Dolzani 1961: 172-4).

أختام الأسرة الثانية المصرية:

استمرت أختام هذه الأسرة على التقنية نفسها ذات الهدف الواضح، الذي صنعت من أجله (الشكل ١٥) حتى العصر الكلاسيكي للدولة القديمة،التي أدخلت على هذه الأختام نوعاً من التحسين والوضوح، خاصة من الناحية التقنية. كما توجد مجموعة مما يُطلق عليها "أختام اسطوانية"، من الصعب أن يُطلق عليها أو تصنف كتمائم، أو حتى كأختام. وهي ذات أشكال قصيرة وسميكة، ويظهر عليها بعض النقوش الهيروغليفية، وإن كان ينقصها وجود أسماء ملكية عليها (Frnkfort 1939: 295, pl. XLv1h-K).

كما توجد مجموعة مما يُطلق عليها "أختام أُسطوانية"، من الصعب أن يُطلق عليها أو تصنف كتمائم، أو حتى كأختام. وهي ذات أشكال قصيرة وسميكة، يظهر عليها بعض النقوش الهيروغليفية، وإن كان ينقصها وجود أسماء ملكية عليها.

أختام الدولة القديمة وعصر الانتقال الأول:

كانت أختام الدولة القديمة عبارة عن أنبوبة طويلة، اسطوانية الشكل، ذات ثقب عريض من دون ذلك التصميم الزخرفي، الذي كان يُمَيِّز، أو يُفرِّق، بين الأختام المصرية وبين نظيرتها، التي كانت في بلاد النهرين (Frnkfort 1939: 296). وعلى كلٍ فالأختام الأُسطوانية، التي كانت سائدة في مصر آنذاك، تأثرت نسبياً بالتأثيرات الآسيوية، التي نلحظها (الشكل ١٦) في بعض الأشكال الغريبة، خاصة في الفراغ الموجود بالأختام الأُسطوانية، التي كانت سائدة خلال الدولة القديمة بوجه خاص. أما أختام عصر الانتقال الأول، الذي يمثل فترة انهيار تام للسلطة المركزية، بعد حروب دارت ما يقرب من ثلث فترة حكمه الأخيرة، المقدرة بـ ٩٤ عاما في فترة حكم "ببي الثاني". فقد احتل البدو منطقة الدلتا، وساد عدم الرضى، وانهارت وحدة البلاد وأصيبت بالشلل التام. ففي ذلك العصر دخلت الزخرفة آخذة طريقها إلى تقنية الأختام. ويوضح الشكل ١٦ أحد هذه الأختام الأُسطوانية، التي تنسب لأحد موظفي الملك "ببي الأول"، نُحت بشكل خشن التقنية، ويشبه إلى حد كبير تقنية الأختام الدائرية الشكل، التي تشبه "الأزرار"، وقد كانت سائدة في جميع أنحاء مصر، منذ الفترة المتأخرة للأسرة السادسة وما تلاها (Frnkfort 1939: 296; Scharff 1936: Heft 8).

لم تكن هذه الأختام ترتبط بأي شيء معروف في مصر، قبل فترة عصر الانتقال الأول. وكانت التصميمات الخاصة بها ترتبط بالأختام السورية والكريتية (نسبة إلى جزيرة كريت بالبحر المتوسط) (Frnkfort 1939: 297; Matz: 30-38).

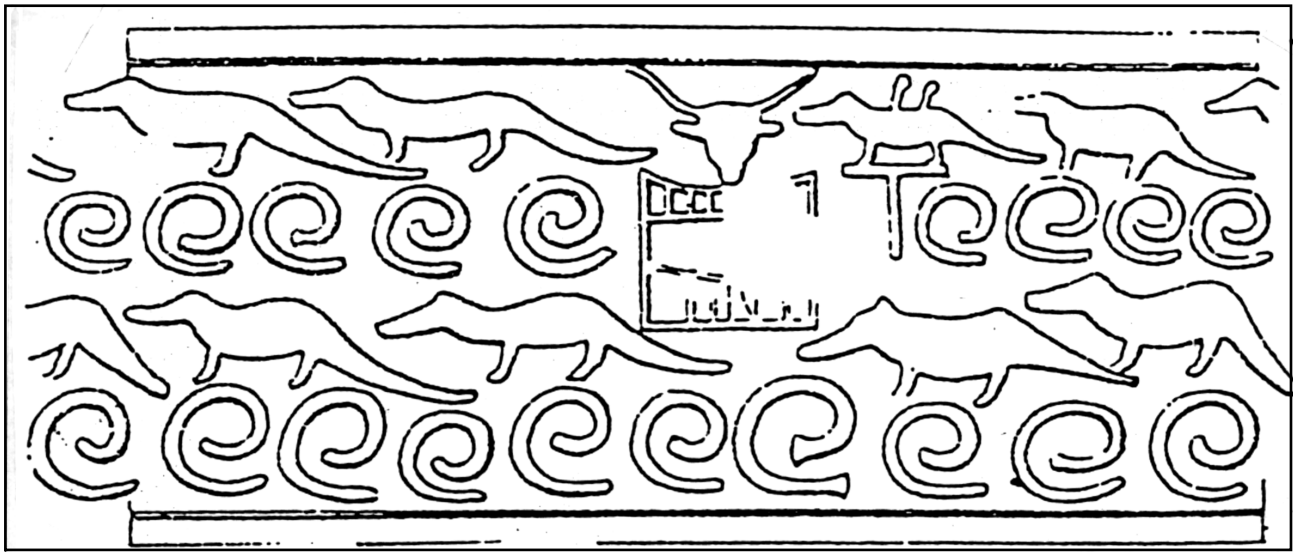

الشكل ١٤: ختم طرخان، مثال على الأختام الأُسطوانية للأسرة الخامسة المصرية، ويؤرخ بعصر الملك "نعرمر" الأسرة الأولى (نقلاً عن: عبد الفتاح ١٩٩٦: الشكل رقم "١١".

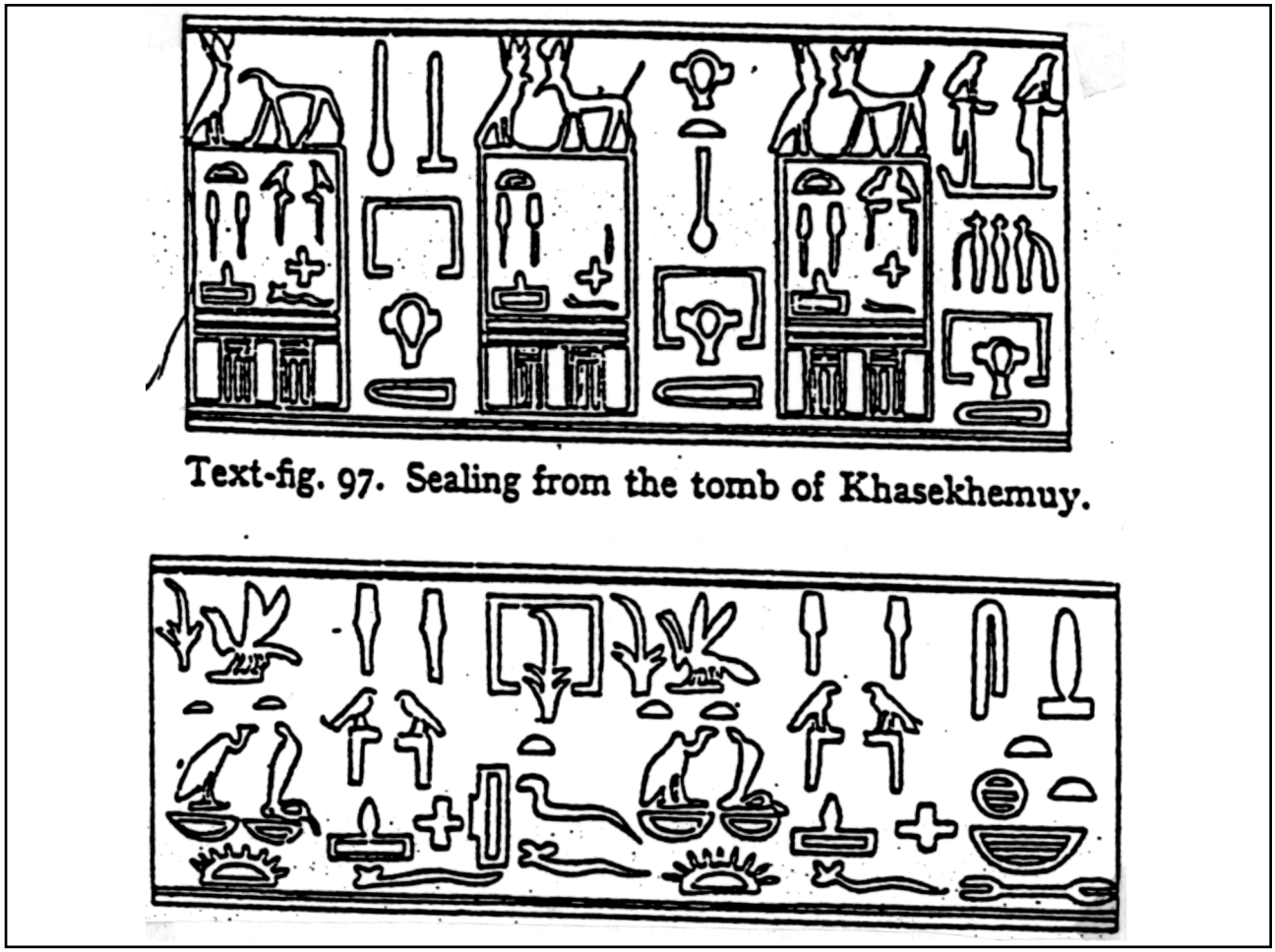

الشكل ١٥: يوضح نموذجاً لأختام الأسرة الثانية المصرية، ويبدو عليه نوع من التحسين والوضوح، أكثر ما كانت عليه، خاصة من ناحية التقنية، (Frankfort 1939. op.cit ; text.fig.97- 98.) .

الشكل ١٦: يمثل أختام الدولة القديمة الأُسطوانية، ويبدو عليه التأثير النسبي بالتأثيرات الآسيوية (Frankfort 1939; op.cit ; text.fig. 99).

ولم تكن بها تأثيرات أجنبية في الشكل العام، بل ظلت الشخصية المصرية واضحة فيها تماما. وهكذا نرى، مرة أخرى، أن المصري القديم طوّع ذلك التصميم، أو التأثير الأجنبي، بدرجة تواكب استعماله وأنماطه الخاصة به، حتى أن الأصول الأجنبية لهذه التصميمات، في ظل ذلك التطويع المصري، أصبحت غير ذات أهمية إطلاقاً. ويعني ذلك أن التطويع المصري القديم كان متقناً، في إطاره وتقنيته وأنماطه المصرية الأصيلة (Frnkfort 1939: 297).

وفي ذلك العصر ظهرت قاعدة الجعارين، على شكل نماذج منحوتة تشبه تلك الخاصة بالأختام الدائرية، التي تشبه الأزرار. وكانت أشكالها عبارة عن عدة نماذج لأختام تحوي أشكالاً ذات مقابض، في شكل حيواني وقاعدة منحوتة (Brunton 1927: 1, 56).

ويخلص الباحث، مما سبق، أن المصريين القدماء أدركوا الفوائد العملية، لاستعمال جعارين دقيقة الشكل، بدلاً من استعمال الأختام، ذات الأشكال الكبيرة. ولا غرو في ذلك، فقد كتبوا قديماً على ورق البردي، وليس الصلصال كما فعل انسان بلاد النهرين القديم. كما نجدهم، أيضاً، حافظوا على وثائقهم ومنتجاتهم، بأختام ليست أكبر حجماً من الختم الذي يُستعمل في عصرنا الحاضر.

وقد ذكر "برنتون" أنه حتى في مصر، فإن الكثير من هذه الجعارين ربما كانت تستخدم كتمائم. وقد استخدمت الأختام الصغيرة في المحافظة على المخازن، وذلك بختم الجرار والسلال للاحتياط من السرقات والسطو عليها. وكذلك لبيان محتوياتها بالأرقام. وفي تلك الفترة استخدمت سورية الأختام كأداة قانونية، حيث كانت تشكّل من الأقراص الطينية (Frnkfort 1939: 297). أما تأثير الأختام الأُسطوانية الآسيوية، فلم يكن معروفا بشكله الواضح في مصر قبل عصر الانتقال الأول.

طابع الأختام الأسطوانية المصرية

كانت الأختام الأُسطوانية الأولية تمتلك روحاً خاصاً بها، لا توحي بأنها تقليد لنظيرتها الآسيوية، وإن كانت الأختام الأُسطوانية التي كانت سائدة في مصر آنذاك، قد تأثرت نسبيا بالتأثيرات الآسيوية (الشكل ١٦). ومن أهم النقوش، التي حملتها تلك الأختام المصرية حيوان الإله "ست" (Seth)، يقابله عمود "جد" (Ded). كما نشاهد الكوبرا في الأمام رافعة جسدها، وأسفلهم منظر لرجل رياضي وقزم وقرد. وهذه الأشكال كانت معروفة جيدا في نقوش الطقوس الجنائزية ومناظرها. وكذلك هناك منظر النحلة وحروف هيروغليفية تحمل اسم ملك مصر السفلى. يلي ذلك منظر لتمساح، أو ربما ورل، ومنظر لرأس الالهه حتحور، وأجزاء أمامية من ثيران، وأسدان منحنيان يقابلان بعضهما من أعلى. وتمثّل أرجل الأسود الأمامية قرون الالهه حتحور. وكان ذلك الختم منقوشاً في نهايته، وقد تكررت خاصية النقش هذه مراراً في ختم أسطواني آسيوي، ذي علاقة بذلك الختم السابق. وكما عرفت أيضاً أختام اسطوانية ودائرية عديدة بهذا الشكل (Frnkfort 1939: 296; pl. xlvll. m. n.; Scharff 1931: 95-102; Jequier 1933: 33, fig. 16; Brunton: pl. LX, 2).

ومن التأثيرات الآسيوية- خاصة من حضارة جمدة نصر-

على بعض الأختام المصرية، بعض المناظر، التي وجدت في مصر قبل بدء الكتابة المبكرة، وهي تتمثل في مجموعتين: المجموعة الأولى تصور مجموعة من الحيوانات ومائدة للقرابين، لا علاقة لأحدهما بالآخر. وإذا حاولنا تفسيراً لذلك، من خلال مشاهدتنا للختم المصري، الذي يصور صفوفاً من الحيوانات تسير رافعة ذيولها (الشكل ١٧ " ٤٢")، فانه يمكن مقارنته بشبيهه تماماً من حضارة جمدة نصر (أنظر شكل رقم ١٧ "٤٧")، والشيء نفسه مع صفوف الأسماك، التي تبين، إضافة إلى ترتيبها، المصري المتناسق (الشكل ١٧ "٤٨-٤٩")، جانبا زخرفياً من بلاد النهرين، إضافة إلى صفوف الحيوانات، التي يبينها ختم "أبو صير الملق" (الشكل ١٧ "٤١")، توجد أمثلة عديدة مشابهة من حضارة الوركاء ٤ (الشكل ١٧ "٤٦") فهذه الحيوانات ترى مرتبة تارة، وأخرى تسير في صف وراء بعضها، وحينما يكون الأسد بينها، فإنه يهاجم الحيوانات من الخلف (Scharff 1941: 29).

ولعل من العلامات المميزة لصفوف الحيوانات، التي رأيناها من قبل على رؤوس المقامع، وجدت -على الأقل- على الأختام المستديرة في حضارة الوركاء (الشكل ١٧ "٥١")، ولكن هذا العنصر الخاص من تلك العلامات المميزة، فيدل على الأشياء المستديرة، مثل المقامع والأختام الأُسطوانية، لكنه لا يوجد على اللوحات ذات الزوايا، التي لا بد أن يقطع فيها الحيوان الأول والأخير. وهذا يتطابق، أيضاً، مع ملعقة للزينة من الصدف- نرى أنها مصرية، لوجود الكتابات الهيروغليفية عليها؛ ولكن المناظر على كلا الجانبين متأثرة تأثراً شديداً بالفن العراقي (الشكل ١٧ "٤٥"). وهناك أيضا بعض المناظر التي تعد مثاراً للجدل، إذ نجد على الوجه الأمامي لها (الشكل ١٧ رقم "٤٥")، التي عليها مناظر للأبقار، وفي (الشكل ١٧ "٥١") تمثيلاً أو تأثيراً عراقياً تماماً بالنسبة للقرون، وعلى ظهر اللوحة (الشكل ١٧ "٤٥") نشاهد صفوفاً من الماعز متقاطعة مع بعضها، وتلك المناظر على ختم مستدير عراقي، عليه صور لماعز في صفوف غير منتهية.

أما المجموعة الثانية من الأختام، فيُرى فيها الشيء نفسه. إلى جانب العلامات الهيروغليفية غير المفهومة؛ فنجد شكلاً بشرياً بشعر طويل، يجلس خلف منضدة (الشكل ١٧ رقم "٤٤") عليها العديد من أرغفة الخبز، هلالية الشكل، والكرسي الصغير مزيّن بسيقان الثور وحوافره، وهناك ختم مشابه اكتشف في العراق، يرجع إلى عصر حضارة جمدة نصر (الشكل ١٧ رقم "٥٠") به منظر للشراب بالكيفية نفسها، وما يلفت النظر إلى ذلك، التشابه مع الكرسي الصغير، المزيّن بسيقان الثور وحوافره (Scharff 1941: 30).

الأختام الأسطوانية ونشأة الكتابة

تُعَدُّ الكتابة الحد الفاصل، الذي نقل المصري القديم من مراحل عصور ما قبل التاريخ، إلى العصور التاريخية. وكان ذلك مع بداية الأسرة الأولى، التي بدأت في القرن الواحد والثلاثين قبل الميلاد تقريباً. وعلى كلٍ فإن محاولات الإنسان القديم في مجال الكتابة، بدأت قبل الأسرة الأولى بحوالي قرنين من الزمان، على أقل تقدير، أي في العصر الحجري الحديث، وعصر ما قبل الأسرات (نورالدين ١٩٩٨: ٨-٩). وتعد أقدم الرموز التصويرية، التي عُرفت بمصر القديمة، وجدها "بتري" (Petrie) على قطع الفخار وآنيته، وعلى قطع من الحجر، في مقابر ما قبل التاريخ، وحدد عمرها بنحو سبعة آلاف سنة. وبمرور الزمن حدث تطور تمثل في نقل الرسم، أو الرموز الأولى، إلى كتابة يعبّرون بها عن أفكارهم، هي "الكتابة الهيروغليفية". وكان ذلك في عام ٣٦٠٠ ق٠م، أو قبل ذلك التاريخ بزمن طويل (ديورانت د. ت: ١٨٠-١٨٣).

ومما لا شك فيه، أن أقدم الأختام الأُسطوانية استخدمت في نطاق الثقافة النقادية. ومعنى ذلك أن الكتابة ترجع إلى عصر نقادة الثانية، أهي من نتاج الثقافة النقادية، أم من نتاج حضارة مصر السفلى، أم هي من نتاج تأثير آسيوي ؟ وقد أظهرت النتائج بشكل واضح، أن المحاولات الأولى للكتابة في مصر القديمة كانت منذ عام ٣٤٠٠-٣٣٠٠ ق٠م، وربما يدلل على ذلك البرهان الواضح، المتمثل في خطوط هيروغليفية قديمة وجدت في مقبرة (واجي)، بما يعد دليلاً مباشراً من التاريخ القديم على اكتشاف ومعرفة الكتابة في مصر في وقت

الشكل ١٧: ٤١ ختم أبو صير الملق، تظهر عليه صفوف من الحيوانات؛ "٤٥" ختم أسطواني عراقي عليه صور لماعز بصفوف غير منتهية؛ "٤٦" ختم من حضارة الوركاء عليه مناظر لحيوانات يهاجمها أسد من الخلف؛ "٤٧" ختم أسطواني من جمدة نصر؛ "٤٨" ختم أسطواني مصري يظهر عليه صفوف متناسقة من الأسماك، وتبدو الزخارف، التي تعود إلى بلاد النهرين؛ "٥٠" ختم أسطواني من عصر جمدة نصر عليه منظر للشراب؛ "٥١" ختم يمثل أختام الوركاء الأسطوانية. (46, 47, 48, 49, 50, 51) 9 -(41-42) pls.8 ;Scharff1941).

مبكر. هذا ومما يعضد ذلك تلك الوثائق والمكتشفات الأثرية وهي بحالة جيدة والتي تعد في حد ذاتها حقائق عاملة (Kaiser 1987: 299).

ومن ناحية أخرى، يعتقد "فلندرز بتري" أن أهل نقادة كان لهم دور لا يُستهان به في الرقي والتحضر، في مصر القديمة آنذاك؛ وذلك من خلال العلامات، التي خطّوها على أوانيهم التي كانت ترمز في البداية إلى أصحابها أو صانعيها؛ أي كانت بمثابة علامات كتابية تخطيطية شخصية؛ ثم ما لبثت تلك العلامات أن أصبحت من أدوات التفاهم بين الناس.

بدأت هذه العلامات – كما يري بتري – بثلاثين علامة في عصر نقادة الأولى، اختفت منها ست علامات في نقاد الثانية وحلت محلها أربع عشر ة علامة أخرى جديدة، في حين ظل أهل نقادة الثانية في استخدام تلك العلامات في تعاملاتهم الكتابية. و بلغ عدد هذه العلامات في الأسرة الأولى ثلاثاً وخمسين علامة. وظلت هذه العلامات حتى الدولة الوسطى، على أقل تقدير. وفي عصر الأسرة الثانية عشرة ظهرت ثلاث علامات جديدة، كتب بها رجال المناجم في شبه جزيرة سيناء، ثم احتضنها الكنعانيون وتعلموها من نصوص سيناء. كذلك تعلم الكنعانيون نظرية المصريين القدماء، في استخدام شكلٍ خاصٍ للتعبير عن أول حرف هجائي من اسمه. وقد أسفر ذلك عن تعلمهم اثنين وعشرين علامة هجائية، كتبوا بها نصوصهم. وعن الكنعانيين، تعلم أهل جنوب شبه الجزيرة العربية هذه العلامات، كما اقتبس منهم قدماء الإغريق وزودوا بها كتاباتهم المقطعية القديمة (صالح ١٩٧٩: ٥٣-٥٤؛ pertie 1940: 41).

بداية الأسرات ونشأة الكتابة

من نتائج الحفائر الحديثة بأم الجعاب، يتضح وجود بعض المقابر التي ترجع إلى عصر نقادة الثالثة، وذلك من خلال فحص ما عُثر عليه في تلك المقابر من شقافات تعود إلى العصر نفسه، ومن حفائر أخرى أجريت في شمال شرقي الدلتا، أوضحت أيضاً، أن الثقافة النقادية ربما عمت كل مناطق مصر السفلى. كما توضح حفائر (بوتو) أن النتاج المادي للثقافة النقادية وصل إلى كل مصر تقريباً، ويبدو أن لهذه الحضارة المصرية العليا "الصعيدية" طابعاً خاصاً ومميزاً، عمَّ مصر القديمة كلها (Kaiser 1990: 288).

وفضلاً على ما تقدم، فإن ما عُثر عليه في احدى تلك المقابر الملكية بأم الجعاب، على بعض القطع العظمية، التي عليها نقوش هيروغليفة، يوضح أن الثقافة والاقتصاد والادارة في مصر القديمة، كانت على مستوىً عالٍ آنذاك، وهو أمر لم يكن موجوداً قبل ذلك العصر. وترجع تلك النقوش أو الكتابات الهيروغليفية إلى ما قبل الأسرة الأولى بحوالي مائة وخمسين عاماً. وأن أقدم المخربشات التي عُثر عليها لم تكن أقدم الا بعشرات السنين، إذ تعود لحوالي مائتين وخمسين عاما قبل الأسرة الأولى. وخلال تلك الفترة كانت الحضارة النقادية تعم الدلتا كلها، وساحل البحر المتوسط.

ويرى الباحث أن انتشار الثقافة النقادية في كل أرجاء مصر القديمة، آنذاك، ربما ساعد على انتشار الكتابة في الدلتا ومصر السفلى، وكذا في جميع أرجاء مصر القديمة في ذلك العصر.

وربما يدل ذلك التطور المبكر للكتابة في مصر القديمة، آنذاك، أن ثمة اتصال ما بين حضارة الأسرة الأولى، وما قبلها في عصور ما قبل التاريخ؛ وأن هذا التطور المبكر للكتابة المصرية القديمة، ساعد على تطوير النتائج التاريخية، ثقافياً واقتصادياً قبل الأسرة الأولى، بنحو مائتين وخمسين عاماً تقريباً.

وكان استخدام الكتابة في بداية الأمر، مقصوراً على دائرة الملوك والأمراء والجهاز الإداري للمملكة المصرية القديمة، التي كانت قبل الأسرة الأولى تتألف من مصر العليا ومصر السفلى. ووجدت تلك الكتابة على قبر (واجي)، و (إري حور) بأبيدوس. وتدلل هذه الكتابات أن كليهما كانا ملكين، وأنهما حكما كل المصريين، سواء في مصر العليا أو السفلى. كما وجدت بعض العلامات البدائية "المخربشات"، على جنبات جرار النبيذ (Kaiser 1987: 290).

ووجدت في منطقة "بأبيدوس" نفسها، نماذج أخرى من هذه الكتابة، على ما يسمى: "واجهة القصر"، تتضمن أسماء هيروغليفية ورموزاً أخرى تصور الصقر المزدوج، ما يبرهن أن مملكة مصر العليا كانت آنذاك تحكم المملكة المصرية القديمة

كلها. كما يبرهن على وجود طراز راقٍ من الادارة، قبل الأسرة الأولى بنحو مائة عام، على الأقل (Kaiser 1987: 291).

رؤية حول نشأة الحروف الهجائية

اختلفت الآراء حول منشأ الحروف الهجائية؛ فهناك من يُرجعها إلى الخط المصري القديم، وهنالك من يرجعها إلى الخط المسماري البابلي. وقد دار جدل حول ذلك الأمر، الذي تبنته مدرستان: فالمدرسة، التي تبنت الأصل المصري لحروف الهجاء، من أبرز أعضائها "دي روجيه" (De Rouget)، الذي يعتقد أن الحروف الفينيقية مشتقة من المصري الهيراطيقي، على اعتبار أن الخط الفينيقي يشترك مع الخط المصري القديم، في الصفة الهجائية الصوتية، أي الحروف "هجائية صوتية". وهذا الرأي على خلاف ما هو معروف عن الخط المسماري البابلي، من أنه مكون من مقاطع. ويتبع دي روجيه في اعتقاده "د. اسحق تيلر" (Dr. Isaac Taylor)، وكذلك "جون بيترس" (John p.Peters) و "بتري" (Petrie)، الذي يرى أن نشأة الحروف الهجائية كانت في مصر من الرموز، التي اكتشفت في المقابر الملكية للسلالات المصرية الأولى. وقد تطورت تلك الرموز، فيما بعد، إلى حروف هجائية، تكوّن منها الخط الهيروغليفي والهيراطيقي والديموطيقي (Taylor: 145; Peters 1901: 177-198; Petrie 1900: 31-32, pl. 52).

أما المدرسة الثانية، التي تُرجّح أن أصل حروف الهجاء تُعزى إلى الخط المسماري البابلي، فتضم مجموعة من المستشرقين، من بينهم "ديكه" (Deecke)، و"هومل" (Hommel) اللذان يرجحان الأصل البابلي للخط الفينيقي، وأن حروف الهجاء جاءت إلى الفينيقين، وإلى الشعوب الأخرى المجاورة لهم، من جزيرة العرب، محل ولادتها ومنشأها. ويستند أصحاب هذه النظرية، إلى بعض القرائن، التي من أهمها: اعتقادهم أن اللغة المصرية والخط المصري القديم، كانا منتشرين خارج مصر، ببلاد الشرق القديم. وفي المقابل، يرون أن اللغة البابلية والخط البابلي، كانا منتشرين في الشرق الأدنى، خاصة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد؛ وان كانت اللغة المصرية القديمة، دخلت فينيقية وفلسطين من بلدان الشرق الأدنى - خلال عهد الأسرة التاسعة عشرة- فإن اللغة البابلية وخطها البابلي، كانا متداولين في تلك الأقطار في مراسلات الملوك المصرية الرسمية وأتباعهم، في تلك الأقطار (باقر ١٩٦٥: ٤٥؛ Curdy: vol. III Sec. 873).

وهناك مدرسة معتدلة بين هاتين المدرستين السابقتين، دُعي أصحابها بـ "الموفقين"، أي إن آراءهم تقوم بعملية توافق بين آراء أصحاب المدرستين السابقتين. ويمثل أصحاب مدرسة التوفيق هذه "فردريك ديلتش" (Friedrik-Delitzsch) الذي يري أن مخترعي الحروف الفينيقية، أخذوا عن الخط المصري القيمة الصوتية الهجائية؛ بينما أخذوا معظم حروفهم عن الخط البابلي المسماري، مستنداً إلى أن معظم الحروف الفينيقية -خمسة عشر حرفاً من مجموع اثنين وعشرين حرفا- لها معانٍ في اللغات السامية، ولا سيما البابلية، مع وجود تحريف بسيط أحدثه الفينيقيون أنفسهم، وفقاً لما اقتضته خصائص لهجاتهم. وهذا يعني -في رأيه- أن الحروف الهجائية اخترعها الفينيقيون أو الكنعانيون، لا الآراميون أو العرب الجنوبيون، كما يرى بعض الباحثين (باقر ١٩٦٥: ٤٥؛ Delitzsch 1897: 34).

وهكذا، رأينا أن هناك جدلاً دار بين العلماء، ولا يزال، حول منشأ الحروف الهجائية؛ ولكن يؤخذ على شكل الأحرف - التي كانت محكاً أو محلاً للنقاش أو الجدل بين العلماء- أن لا بد كان لها أشكالا حروف أخرى أبسط، نشأت أو انبثقت منها، على أن يتوافر لتلك الحروف صفة القدم. لذا، رأى بعض العلماء أن مثل هذه المخطوطات غير كافية، لحل مشكلة أصل الحروف الهجائية. وتركوا الأمر إلى ما قد يظهره المستقبل من مخطوطات تحوي أحرفاً أقدم وأبسط. وتدور عجلة الزمن، وتأتي حفائر شبه جزيرة سيناء بما اشتهاه العلماء. فقد كُشف النقاب عن نقوش كتابية اشتهرت باسم: "مخطوطات سيناء" اكتشفها "فلندرز بتري" (Flinders Petrie) عام ١٩٠٤ م، في منطقة "سرابيط الخادم"؛ لذا، انكب فريق من العلماء لبحث تلك المخطوطات ودراستها؛ وعلى رأسهم "جاردنر" (Gardiner)، و"زيته" (Sethe) (Gardiner 1916: 1-6; Zethe 1916: 78-161)، و"جرم" (Grimme)، و"ليك" (Lake)، و"بليك" (Blake)، وغيرهم (Grimme 1923:

34).

وتعد هذه المخطوطات على قدر كبير من الأهمية، إذ عدها هؤلاء العلماء بمثابة مفتاحٍ لأحرف الهجاء، لكونها أبسط وأقدم نقوش سامية مكتوبة بحروف هجائية، عُثر عليها إلى الآن؛ بل هي على الأرجح أول حروف هجائية عالمية، نشأت منها بقية أنواع الحروف الهجائية المعروفة.

ونخلص مما سبق من أراء، حول أسبقية معرفة الكتابة بين مصر والعراق، إلى الآتي:

أولاً: العراق: هناك من العلماء مَنْ يرجّح ظهور بدايات الكتابة العراقية، منذ المراحل الأخيرة لحضارتي الوركاء وجمدة نصر، وذلك في أواخر فجر التاريخ العراقي القديم. بينما يحدد آخرون تلك البداية بالكتابة على الألواح الطينية، وذلك في ٣٢٠٠ ق٠م تقريباً، في حين حددوا تاريخ النقوش السومرية بعام ٣٦٠٠ ق٠م تقريبا.

ثانياً: مصر: يرى "ول ديورانت" أن الرموز التصويرية، التي وجدها "فلندرز بتري" على فخار ما قبل التاريخ بمصر، هي التي أرخت لتلك الرموز التصويرية بسبعة آلاف سنة. وبمرور الزمن حدث تطور تمثل في نقل الرسم أو الرموز الأولى، إلى كتابة يعبرون بها عن أفكارهم هي "الكتابة الهيروغليفية"، وكان ذلك في عام ٣٦٠٠ ق٠ م، وقد يكون قبل ذلك التاريخ بزمن طويل، فضلا عمّا أثبته بعض العلماء في هذا المضمار، من أن أهل نقادة خطّوا على أوانيهم علامات كتابية تخطيطية ٠ إضافة إلى الرأي الذي يقول: إن المحاولات الأولى للكتابة في مصر، ترجع إلى ٣٤٠٠- ٣٣٠٠ ق٠م تقريباً.

وهناك من يرى أن محاولات الكتابة الأولى في مصر، ترجع إلى ما قبل الأسرة الأولى بقرنين من الزمان، على أقل تقدير، أي في العصر الحجري الحديث وعصر ما قبل الأسرات. ومما يؤكد ذلك، العثور باحدى المقابر الملكية بأم الجعاب، على بعض القطع العظمية، التي عليها نقوش هيروغليفة.

إضافة إلى ذلك يرى "دي روجيه" وهو - كما أوردنا سابقا- من أنصار أن الخط المصري القديم هو الأصل في الحروف الهجائية (الكتابة)، أن الحروف الفينيقية مشتقة من الخط الهيراطيقي، ويشاطره رأيه كل من: "إسحق تيلر، وجون بيترس، وبتري، وجاردنر".

فضلاً عما جاءت به "مخطوطات طور سيناء"، التي اكتشفها "فلندرز بتري" (Flinders Petrie) عام ١٩٠٤ م في منطقة "سرابيط الخادم". وتعد هذه المخطوطات على قدر كبير من الأهمية، إذ عدّها هؤلاء العلماء بمثابة مفتاحٍ لأحرف الهجاء، لكونها أبسط وأقدم نقوش سامية مكتوبة بحروف هجائية عثر عليها إلى الآن، بل هي، على الأرجح، أول حروف هجائية عالمية، نشأت منها بقية أنواع الحروف الهجائية المعروفة.

وفضلاً على كل ما تقدم، فإن ما عُثر عليه من نقوش وأجزاء من كتابات "واجهة القصر"، التي وجدت في "أبيدوس- محافظة سوهاج بصعيد مصر"، تتضمن أسماء هيروغليفية، وأجزاء أخرى للصقر المزدوج. وترجع هذه الكتابات والنقوش إلى ما قبل الأسرة الأولى بنحو مائة عام على الأقل، وذلك دليل مادي على أن الكتابة عرفت بمصر قبل ذلك التاريخ.

وفي ضوء ما سبق، يرى الباحث، بعد تحليل ومقارنة مختلف الآراء، التي دارت في ذلك المضمار، والجدل العلمي حوله، وكذلك النظر إلى ما أتيح للباحث من المصادر الأثرية، التي نعدها المصدر الرئيسي والأهم للتأريخ، أن الكتابة عرفت في مصر القديمة قبل أن يعرفها الإنسان العراقي القديم بنحو أكثر من قرنين من الزمان على أقل تقدير. وان كانت هذه الدراسة لا يعدها الباحث نهائية، في معرفة المدى الزمني الحقيقي، الذي سبق به إنسان مصر القديمة في معرفة الكتابة. فلا يزال يساورني الشك في أن ذلك التاريخ التقريبي، الذي وصلت اليه الدراسة، أقل بكثير من التاريخ الحقيقي لمعرفة الإنسان القديم في مصر للكتابة. ونأمل أن تكشف الحفائر الآثارية العلمية المستقبلية، المدعومة بجهد وبحث ودراسة، للعلماء والمتخصيين في العالم العربي، ما يعينهم في تحديد هذا التاريخ على نحو دقيق.

أهم النتائج

١- استعملت الأختام الأُسطوانية في جنوبي العراق ووسطه، منذ الربع الأول للألف الثالث قبل الميلاد، وهي الفترة التي ترجع إلى الحقبة الزمنية ما بين نهاية عصر جمدة نصر،

وبداية عصر فجر السلالات السومرية.

٢- استخدم العراقيون القدامى الأختام بكثرة، خاصة في الأنشطة التجارية؛ في ختم البضائع، كنوع من التأمين ضد السرقات، أو لتمييزها عن البضائع الأخرى، ما يشير إلى زيادة النشاط التجاري، وكذلك إلى نمو الشعور بالذات والملكية الخاصة. وربما كانت تلك الأختام تشير إلى رموز دلالية ارتبطت بالختم.

٣- أهم المناظر، التي كانت على هذه الأختام بشكل عام، هي مناظر ذات طابع ديني، إلى جانب تسجيل اسم صاحب الاسطوانة "الختم"، وإهداء للآلهه، إلى جانب مناظر المآدب والشجرة المقدسة. ومن مناظر أختام جمدة نصر، مناظر الأعداء والأسرى، إلى جانب الأختام الأُسطوانية التي تحمل نقوشاً هندسية محفورة، يتخللها - في معظم الأحيان - رسوم للماشية، كالغزلان والماعز، أو مناظر للطيور والأسماك. هذه الأختام أطلقوا عليها اسم: "البروكيد"، وذلك لتشابه زخرفتها بالنسيج، أو بشكل حياكة الحصر والسلال. أما مناظرالأختام الأُسطوانية الصغيرة، فكانت مناظر دينية أو رعي، بينما كان هناك إفريز، هو عبارة عن نسيج مزين بالحيوانات المتصارعة٠

٤- أكتُشف نوعان من هذه الأختام الأُسطوانية، يرجعان إلى عصر فجر السلالات؛ النوع الأول، وهو ما يطلق عليه "البروكيد"، وينسب إلى نهاية عصر جمدة نصر، وهي الأختام ذات الزخارف الهندسية. أما النوع الثاني، فينسب إلى عصر فجر السلالات الأول.

٥- تنوعت مادة الأختام الأُسطوانية العديدة، التي وجدت على مر العصور العراقية القديمة؛ فأختام (أوروك) الأُسطوانية، صنعت من بعض الموادالشائعة، آنذاك، كالرخام الأبيض، أو القرنفلي اللون. واستمرت الأختام تصنع من تلك المواد حتى عصر جمدة نصر، الذي فضّل استخدام حجر الكلس الملون، وخاصة الأبيض اللون، المائل إلى اللون الرمادي، شائع الاستخدام آنذاك. وفي نهاية ذلك العصر، صنعت تلك الأختام من حجر الكلس الأخضر، أو الرمادي، ومن الفيانس، أو الخزف، أو الاستياتايت المزجّج. أما مع بداية عصر الأسرات الأولى في العراق، فإن تقنية ومادة الصنع لتلك الأختام الأُسطوانية، ذات الاطار أو الشكل المزخرف، فكانت من حجر الكلس الأخضر، أو الأزرق، أو الأسود، أو من حجر السربنتين الأسود. وفي النصف الأخير لعصر الأسرات الأولى، استخدم الحجر الأبيض نصف الشفاف، أو الأخضر، وحجر السربنتين الأخضر، والحجر الأرجواني، ولب المحار أو الصدف (الذي استمر مُستَخْدَماً حتى بداية الأسرة الثالثة، وكان يجلب من الخليج العربي). وظلت الأحجار البيضاء، نصف الشفافة، تستخدم لعمل الأختام الأُسطوانية الصغيرة، وكذلك اللازورد أو الذهب والفضة، سواء كانت صلدة أو مصنوعة من رقائق معدنية مطلية بالقار. وفي عصر سرجون الأول، تنوعت مادة صنع تلك الأختام الأُسطوانية، فمنها ما صنع من حجر اليشب، أو من صخر الكريستال. كما استخدمت تلك المواد السابقة، في حالة ندرة وجود لب الأصداف الرخوة، قبل نهاية ذلك العصر. أما أختام الأسرة الثالثة لأور، فصنعت من المواد نفسها، التي صنعت منها أختام العصر الأكدي، ومع ذلك فإن اللازورد استخدم أحياناً، كما كان من قبل، بشكل استثنائي، لصناعة الأختام النفيسة والقيمة. وفي سورية استخدم لصناعة تلك الأختام الهيماتيت، وبعد ذلك استخدم الفخار المطلي أو الفيانس، خاصة في عصر الميتانيين.

٦- معرفة إنسان ما بين النهرين القديم للأختام الأُسطوانية، يرجع إلى ما قبل معرفته لاختراع الكتابة. وتمثل تلك الأختام الأُسطوانية مرحلة بدائية جداً، للكتابة العراقية القديمة، إذ كانت تحوي أرقاماً منحوتة، لتساعد الإنسان العراقي القديم على التذكّر؛ ثم تلي تلك المرحلة اضافة أحرف الكتابة للأرقام، وكان ذلك في منتصف الألف الرابع ق٠م. وكانت الكتابة عبارة عن صور، ثم اتخذت طابعاً مقطعياً رمزياً في شكل خطوط مستقيمة، لها قيمة صوتية بدلاً من الصور السابقة. ثم عُرفت بعد ذلك بالكتابة المسمارية (عتيق) أي القديمة، وسرعان ما استُخدمت لتدوين أسماء الملوك، والمعتقدات الدينية،

والأساطير.

٧- كان نظام الكتابة في اللغة الخاصة بأهل العراق القدامى، يشبه الكتابة التصويرية (pictographic)، التي استخدمها المصريون القدماء، وذلك برسم الشيء المراد كتابته، أو جزء مميز منه، للتعبير عنه لسهولة فهم المقصود منه. ومما يؤخذ على الكتابة المسمارية، أنها لم تستطع التعبير عن الأفكار المجردة، والصيغ المختلفة للفعل.

٨- أما أختام مصر الأُسطوانية، فان تاريخها يقدم أمثلة تقليدية، ناشئة عن تأثيرات حضارية متبادلة في منطقة الشرق الأدني القديم. فقد استخدمت الأختام الأُسطوانية بشكل عملي واضح، في أنحاء مصر كلها خلال الألف الثالث قبل الميلاد. واتسمت أشكال تلك الأختام الأُسطوانية بهيئة مصرية خالصة. واستطاع المصري القديم أن يطّوع تلك التقنية لمصلحته، كما أضاف اليها وابتكر وجدد. وكانت تلك الأختام الأُسطوانية الأولية، تمتلك روحاً خاصة بها، فلا توحي بأنها تقليد لنظيرتها الآسيوية.

٩- وإن كانت فكرة استخدام الأختام الأُسطوانية في مصر القديمة، فكرة مستعارة من الخارج؛ فإن التعبير عنها كان مصرياً خالصاً، لأن تشكيلات الأختام الأُسطوانية المبكرة في مصر القديمة، كانت تمثل البدايات الأولى للكتابة المصرية.

١٠- شهدت أختام أواخر عصر الأسرة الأولى تقدماً ملموساً، فيما يتعلق بالتقنية الواضحة ذات المعنى، مع المقارنة بمثيلاتها المبكرة، أو البدائية ٠ ونجد في هذه الأسرة اختفاء الأختام ذات التصميم الزخرفي، وأنها نقشت أو حفرت بالكتابة فقط؛ ومن ثم اختلف الشكل الخاص بهذه الأختام، مع المقارنة بأختام بلاد النهرين، وكذا بأختام مصر المبكرة.

١١- أدرك المصريون القدماء الفوائد العملية، لاستعمال جعارين دقيقة الشكل بدلاً من استعمال الأختام، ذات الأشكال الكبيرة. ولا غرو في ذلك، فلقد كتبوا قديماً على ورق البردي وليس الصلصال، كما فعل انسان بلاد النهرين القديم، ونراهم أيضا قد حافظوا على وثائقهم ومنتوجاتهم بأختام، ليست أكبر من الذي يُستعمل في الوقت الحاضر.

١٢- انتشار الثقافة النقادية في أرجاء مصرالقديمة، آنذاك، ساعد على انتشار الكتابة في الدلتا ومصر السفلى، وكذا جميع أرجاء مصر القديمة، في ذلك العصر.

١٤- التطور المبكر للكتابة في مصر القديمة، آنذاك، يدل على أن هناك اتصالاً ما بين حضارة الأسرة الأولى، وما قبلها من عصور ما قبل التاريخ؛ وأن هذا التطور المبكر للكتابة المصرية القديمة، ساعد على تطوير النتائج التاريخية، ثقافياً واقتصادياً قبل الأسرة الأولى بنحو مائتين وخمسين عاماً تقريباً.

١٥- كان استخدام الكتابة، في بداية الأمر، مقتصراً على دائرة الملوك والأمراء والجهاز الإداري، للمملكة المصرية القديمة.

١٦- عرف الإنسان المصري القديم الكتابة قبل الإنسان العراقي القديم بنحو مائتي عام، على أقل تقدير ٠

د٠ اسماعيل عبد الفتاح محمد عبد الفتاح - كلية الاداب- جامعة جنوب الوادي بقنا - (حالياً- كلية التربية للبنات بتبوك - قسم التاريخ - المملكة العربية السعودية: تبوك ص٠ ب: ٧٩٦).
Email: altaawoos@hotmail.com

الهوامش :

(١) من المعروف أن نبات الغاب ونبات البردي كانا يمثلان الأحراج، التي كانت بمثابة الموطن الطبيعي للتمساح، الذي عبد فيه قدماء المصريين قوته وضراوته؛ لذا عبدوه – كما اعتقدوا – درءاً لشروره بالتقرب اليه بالعبادة والقربان كغيره من معبودات مصر القديمة .

المراجع

أولاً: المراجع العربية:

باقر، طه ١٩٦٥، "أصل الحروف الهجائية وانتشارها"، **مجلة سومر**، مجلد رقم (١).

ديورانت، ول، **قصة الحضارة، المجلد الأول، نشأة الحضارة، الشرق الأدنى**، ترجمة د .زكي نجيب محمود، محمد بدران .

سليم، أحمد أمين ١٩٩٥، **دراسات في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم منذ الدهور الحجرية وحتي بداية العصور التاريخية في مصر وبعض مناطق الشرق الأدنى القديم**، جامعة الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.

صالح، عبد العزيز ١٩٧٩، **الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول مصر والعراق**، الطبعة الثالثة، مكتبة الأنجلو المصرية.

عبد الفتاح، اسماعيل ١٩٩٦، سوبك منذ بداية الأسرات وحتي نهاية الدولة الحديثة، دراسة حضارية لغوية، رسالة دكتوراة غير منشورة في الحضارة المصرية القديمة ، جامعة الزقازيق.

عطالله، مصطفى ١٩٩٨، "الهيئات الآدمية غير التقليدية في عصور ما قبل التاريخ والعصر المبكر في مصر (من خلال مناظر الصيد ومناظر وتماثيل الأعداء والأسرى)"، **مجلة كلية الآثار**، العدد التاسع، جامعة القاهرة.

فرج، بصمة ١٩٨٥-١٩٨٦، الحقبة الزمنية بين عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية في بلاد الرافدين، **سومر**، الجزء الأول والثاني، المجلد الرابع والأربعون.

نور الدين، عبد الحليم ١٩٩٨، **اللغة المصرية القديمة**، جامعة القاهرة.

موسكاتي، سبتينو ١٩٥٧، **الحضارات السامية القديمة**، ترجمة: د. السيد يعقوب أبو بكر، دار الكتاب العربي للطبع والنشر، لندن.

ثانياً: المراجع غير العربية:

Ayrton, E., W. Loat 1911. **Pre-dynastic Cemetry at El Mahasna**, London.

Brunton, G. 1927. O. B. E. with chapters by Alan Gardiner and Flinders Petri, 'Qau and Badari I", **BSAE** XLIV, London.

Brunton, G. 1928. "Qau and Badari II", **BSAE,** London.

Brunton , G. 1948. **Matmar**, London.

Cottrell, L. 1965. **The quest for Sumer,** G. P. Putnamsson, New york.

Crawford, H. 1991. **Sumer and the Sumerians**, Cambridge University Press, New York .

Cros, Nouvelles Fouilles de Telloh.

Curdy, MC . **History probhecy and the monuments**, vol. III, section 873.

Delitzsch, F. 1897. **Die Entstehung des altesten Schriftsystems** .

Dolzani, C 1961. II Dio Sobk, atti de/lla accademia nazionale dei lincei, CI. Di scienze morali, storiche e filologiche, **Serie** VIII, 10.4, Rome .

Frankfort, M. A. H. 1939. **Cylinder seals, a documentary essay on the art and religion of the ancient near east**, London.

Falkenstien 1936. **Archaische Texte aus Uruk**, Berlin.

Gardiner, A. 1916. "The Egyptian origin of the Semitic", **J. E. A**; III.

Gibson, M., R. D. BIGGS 1977. **Seals and sealing in the ancient near east**.

Grimme 1923. **Althebaische Inschriften Von Sina**i.

Helck, Z 1990. "Untersuchungen zur Thinitenzeit gesamtagyptischen, Staates", **MDAIK**, 46.

Helck, W. 1971. **Die Beziehungen Agyptens zu Vorderasien** i, 3. und 2. Jahrtausend v. Chr. Agyptologische Abhandlungen 5.Wiesbaden (Second Edition) .

Heuzey, 1969. **Catalogue des Antiquites Chaldeennes** .

Jequier 1933. **Les Pyramides des Reines Neit et Apouit, Fouilles de Saqqarah**.

Heuzey 1969.**Catalogye des Antiquites Chaldeenne**s.

Kaiser, W. 1990. "Zur Entstehung des samtagyptischen staates", **MDAIK**, 46.

Kaiser, W. 1987. "Zum Siegel mit fruhen Konigsnamen von Ummel-Qaab", **MDAIK**, 43.

Kaiser, W. 1990. "Zur Entstehung des gesamtagytishen Staates", **MDAIK**.

Kaplony, P. 1981 . **Die Rollsiegel des alten Reich II B, Brussels.**

Kaplony, **Die Inschriften der Egyptischen Fruhzeit 1.**

Kramer, N., S. 1963. T**he Sumerians**, University of Chicago.

Lythgoe, A., M. 1965. **Edited by Dows Dunham, The predeynastic cemetery, N 7000: Naga-ed-Der**, Berkeley, university of California.

Petrie F. 1900. **The Royal Tombs of the earliest dynasties,** part I, London.

Petrie, E. G. 1917. **Scarabs and cylinders with names,** illustrated by the collection in university collegge, London.

Peters, J, P. 1901. **Journal of The American Oriental Society first half**, vol.22.

Petrie, Wainwright, Mackay. 1912. The Labyrinth, Gerza and Mazguneh, **BSAE**, XXI, London.

Petrie, F. 1940. **The Wisdom of Egyptians,** London.

Postgate, J. N. 1992. **Early Mesopotamia, Society and Economy at the Dawn of History**.

Scharff, A. 1941. **Die fru"hkultur A"gyptens und Mesopotamiens**, Leipzig.

Scharff, 1931. **Zeitschrift fur Aegyptische Sprache**,

LXV11.

Scharff 1936. **Sitzungsberichte der Bayerischhen Akademie der Wissenschaften**, Phil.-Hist. Abt, Heft . Sidney, S. **Early History of Assyria**.
Tostado, C ; A. Taylor, 2001. **Middle east and west Asia chronology, Sumer 3500-1900 BC**.

Zethe, 1916. **Der Ursprung des Alphabets, Nachrichten der K.Gesellschaft der Wissenschaften zur Gottingen Geschaftliche Mitteilungen**.